نحو صياغة الأصول النظرية للحسبة العلمية في الإسلام: دراسة في المفهوم وتطبيقاته

صالح بن طاهر مشوش*

طارق لعجال**

الملخص

الحسبة العلمية فرع من الحسبة العامة التي اجتهد المسلمون في تشكيل هيئاتها، وإدارة أمورها لخدمة المجتمع، ومحاربة الفساد، بهدف السعي لجلب المصالح المعنوية، والمادية العامة المقصودة في الشرع الإسلامي. ويركز البحث على إبراز أصول الحسبة العلمية ونماذجها، وبعض معالمها، معتمدين على قراءة مؤلفات الحسبة التي تخص مجالات العلم؛ لاستخراج جملة من التصورات، والضوابط، والقواعد العملية، ونماذج من ممارسات الحسبة على النشاط العلمي ومؤسساته. وتوصل البحث إلى أنَّ الحسبة العامة تتضمن جملة من الوظائف العمرانية تضم تحتها تخصصات إدارية، وعلمية متعددة، من بينها "الحسبة العلمية" التي حظيت باهتمام كبير في تراثنا الحضاري العريق، وسوف يسهم إحياؤها وتطويرها في تحسين أداء المؤسسات العلمية، والاجتماعية الأخرى في المجتمع، والدولة، والعمران الإسلامي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الحسبة، الحسبة العلمية، النشاط العلمي، الوظائف العمرانية، المؤسسات العلمية.

Towards the formulation of the theoretical bases of academic accountability in Islam: A Study of its concept and implications

Abstract

Academic accountability *(hisbah)* is a branch of the general accountability that Muslims has evdeavored to establish its boards, and run its affairs to serve society, to fight corruption, and to bring materialistic and moral interests intended by Islamic law. The paper focuses on identifying oringins of academic accountability, its models and landmiles, through reading literature of academic accountability and its institutions, so as to extract the perceptions, measures, practical rules and models of practice. The paper has found that academic accountability in its broadest sense encompasses a wide range of civilizational functions of specialized administrative, scientific and educational concerns that have had great care in Islamic heritage. Efforts to revive such historical experience and develop its practices would improve the performance of academic and social institutions of contemporary Muslim society, sate and civilization.

Keywords: Accountability, Academic Accountability, Academic activity, Civilizational functions, Academic institutions.

---

* أستاذ مساعد، قسم الدراسات العامة، كلية علوم الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية–ماليزيا. بريد إلكتروني: (btahar75@gmail.com) (bentahar@iiu.edu.my)

** أستاذ مساعد، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، ماليزيا. البريد الإلكتروني: tarekladjal@gmail.com

تم تسلّم البحث بتاريخ ٢٠١٢/٣/٢٩م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٢/١٢/١٧م.

مقدمة:

لم تكن إسهامات الحضارة الإسلامية مقتصرةً على مجالات المعرفة العلمية البحتة، بل امتدت كذلك إلى تشييد المؤسسات التي تضمن إنتاج تلك المعرفة، واستعمالها وفق ما تقتضيه قيم الإسلام في سد حاجات المجتمع في مختلف مراحل تطوره. إن إسهام المسلمين في هذا الجانب اتسع، ليشمل كذلك إدراة التعليم، والمعرفة، وتحديد السياسات العملية؛ لخدمة المجتمع ومقاصده. وتمثل جهود المسلمين في تأسيس مؤسسة الحسبة أحد جوانب هذا الإسهام. لقد اتجه الباحثون إلى دراسة هذا الجانب، ولا سيّما من كانت اهتماماتهم موجهة تجاه مجال السياسة الشرعية؛ إذ يحتل موضوع الحسبة فيها موقع المركز. وبإمعان النظر في مؤلفات العلماء في مباحث الحسبة، يستنتج أن حصر مجال الحسبة في المجال القضائي والاقتصادي فحسب أمر غير سليم، فالحسبة كما تناولتها مؤلفات المتقدمين، والمتأخرين تتسع؛ لتشمل كل الجوانب التي تكوّن حياة العمران، سواء تعلّق ذلك بالفرد أو بالجماعة. ويحاول البحث بيان جانبٍ من شمولية الحسبة للعلم، ومؤسساته، وإدارتها، وهي المجالات التي أبدع المسلمون فيها، وقاموا بتطويرها؛ ضماناً لجودة التعليم، والتربية وفق ما يقتضيه الدين. ويعتمد البحث على قراءة نصوص مؤلفات الحسبة التي تخصّ مجالات العلم ومؤسساته وتحليلها، ثم يتم استخراج جملة من التصورات، والضوابط، والقواعد العملية، ونماذج في إدارة المؤسسات العلمية، وفق منظومة الحسبة العلمية. وفي النهاية يتطلع الباحثان إلى وضع تعريف للحسبة العلمية، وتحديد مجالاتها، ووسائلها، ومعاييرها، وتطبيقاتها على المؤسسات العلمية.

أولاً: مفهوم "الحسبة العلمية" وأدبياتها في التراث الإسلامي

لا شك في أن كل ما أنتجه المسلمون من العلوم والمؤسسات تعود جذوره إلى مصادر الوحي، فالعلوم الإسلامية كلها؛ الشرعية منها أو الإنسانية يعود أصلها إلى تلك المصادر العليا. والحسبة العامة أو العلمية لا تنفلت من هذا الحكم، فهي كذلك صادرة منها، فالآيات التي تحثّ على "الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر" هي اللبّ الذي

يشكل ولاية الحسبة العامة. أما الحسبة العلمية التي نسعى إلى إثباتها واستخراجها من النصوص التراثية وفق شرط التخصيص، فهي كذلك تدخل ضمن تلك المأمورات، والمنهيات، مع وجود آيات كثيرة أخرى تبرز اتجاهها التخصصي؛ ونعني بذلك ممارسة الحسبة وتطبيقها على مجال العلم، وبالعلم التخصصي. ففي القرآن الكريم جاء خطاب محاسبة أعمال الحواس والقلب (الوظائف والقدرات الذهنية، والإدراكية، والعقلية) للإنسان مباشراً في الآيات: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦)؛ "أي ولا تتبع، ولا تقتف ما لا علم لك به من قول أو فعل، وحاصله يرجع إلى النهي عن الحكم بما لا يكون معلوماً. وهذه قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة."[١] كما قال ابن عباس فيما ذكره فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦هـ) في تفسيره لمعنى الآية: "لا تشهد إلا بما رأته عيناك، وسمعته أذناك، ووعاه قلبك."[٢] وكذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (الحجرات: ١٢) وفي الحديث: "إياكم والظن؛ فإن الظن أكذبُ الحديث."٣ ولا شك في أن التفريع في صنوف العلم، والتخصص فيه يكون أحد تلك الأنواع التي عناها ابن عباس، إن لم يكن أولها وأولاها.

لقد تضمّن القرآن الكريم مجموعة من المفاهيم التي تدخل في تشكيل الأصول النظرية للحسبة العلمية، تشمل هذه المجموعة كلاً من مصطلحات: البرهان، والسلطان، والعلم، والقوة، والحكمة، والبيّنات، والأمانة، والمقدار، والميزان، والإحسان، والمعروف، والإصلاح، والرقابة، والحساب،...وغيرها من المفاهيم المفتاحية التي تنتمي إلى جنس هذه المجموعة التي تنصبّ على تصنيف الفعل الإنساني، والحكم عليه. وهذا خلافاً لما ذهب إليه أحمد صبحي منصور حين ادّعى أن الحسبة العامة "ليست من مصطلحات القرآن، ولم ترد فيه مطلقاً، وهي إنما تنتمي إلى حضارة المسلمين، وجاءت استجابة

[١] الرازي، فخر الدين. **التفسير الكبير**، لبنان: دار الفكر، ط١، ١٩٨١م، ج٢٠، ص٢٠٨.

[٢] المرجع السابق، ج٢٠، ص٢٠٩.

[٣] البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، الرياض: بيت الأفكار الدولية للنشر، ١٩٩٨م، كتاب: النكاح، باب: لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، حديث رقم٥١٤٣، ص١٠١٩. انظر أيضاً:
– ابن الحجاج القشيري، مسلم. **صحيح مسلم**، الرياض: بيت الأفكار الدولية للنشر، ١٩٩٨م، كتاب: البر والصلة الآداب، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجس، حديث رقم٢٥٦٣.

لظروفهم الاجتماعية، والسياسية."[٤] إلا أن محض التمعن في القرآن الكريم يقف بنا على خلاف الزعم السابق، فمادة "حسب" ومشتقاتها و"يحاسب" ومشتقاتها وردت في عشرات الآيات القرآنية (١٠٠ آية قرآنية)، كما أن المصطلحات التخصصية لكل فرع من فروع الحسبة العامة ورد لها ذكر في القرآن الكريم والسنة المطهرة، كما هو الحال مع الحسبة العلمية التي أوردنا جانباً من مفاهيمها القرآنية سالفاً.

كما أن المؤسسات الإسلامية عموماً تسعى إلى تحقيق أهداف اجتماعية بالمقام الأول؛ لأن مفهوم الجماعة، والحفاظ على كيانها وقوتها من المحاور الكبرى التي اعتنى بها الإسلام، لكن مع ذلك تبقى غايتها القصوى هي خدمة الدين، ولذلك يصبح التوقّف عند ظروف الاجتماع وحده في تفسير جذور مؤسسة الحسبة أمراً غير سليم، وهذا علاوة على ما قدمه القرآن من المفاهيم المفتاحية، والنظم التي شكّلت أصول الحسبة، وأطرها الكلية، ووسائلها العلمية والعملية.

قبل بيان ما تعنيه الحسبة العلمية، لا بدّ من الوقوف قليلاً عند تعريف الحسبة العامة التي بدأ المسلمون الاهتمام بها، والتأليف فيها منذ القرون الأولى من تاريخ الأمة الإسلامية التي كان موضوعها عند علماء الحسبة "التحدث في الأمر، والنهي، والتحدّث على المعايش، والصنائع، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته."[٥] وعدّها طاش كبري زاده (توفي ٩٦٨ هـ) علماً ينظر في "أمور أهل المدينة بإجراء ما رسم في الرياسة الإصطلاحية ونهي ما يخالفها، أو بتنفيذ ما تقرر في الشرع من الأمر بالمعروف."[٦] أما صديق حسن القنوجي، فقد عرّف الاحتساب نقلاً عن كشف الظنون بأنّه "علم باحث عن الأمور الجارية بين أهل البلد من معاملاتهم التي لا يتم التمدّن بدونها من حيث إجراؤها على قانون العدل، بحيث يتم التراضي بين المتعاملين، وعن سياسة العباد بنهي المنكر، وأمر المعروف بحيث لا يؤدّي إلى مشاجرات، وتفاخر

[٤] منصور، أحمد صبحي. **الحسبة دراسة أصولية تاريخية**، القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، ط١، ١٩٩٥م، ص٨.

[٥] القلقشندي، أحمد بن علي. **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، تحقيق: يوسف علي طويل، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٩٨٧م، ج٤، ص٣٨.

[٦] طاش كبري زاده. **موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، تحقيق: علي دحروج، لبنان: مكتبة لبنان الناشرون، ط١، ١٩٩٨م، ص٨٧.

بين العباد بحسب ما رآه الخليفة من الزجر والمنع، ومبادئه بعضها فقهي، وبعضها أمور استحسانيّة ناشئة من رأي الخليفة، والغرض منه تحصيل الملكة في تلك الأمور، وفائدته إجراء أمور المدن في المجاري على الوجه الأتم."[٧] فالمتمعن في هذه التعريفات، والأخرى التي لم يتم ذكرها يرى أنها تحمل مجموعة من المفاهيم المفتاحية التي تؤطر الأطر النظرية للحسبة، وهذه تتمثل في: العلم، والمدينة، والشرع، والمعروف، والصنائع، والمعايش، والرياسة، والمنكر، وهي كلها تندرج في الأحوال المعنوية والمادية للإنسان المسلم ضمن العمران البشري.

إلا أن الملاحظ في التراث الحسبوي؛ التركيز غير المحدود على مراقبة أهم القطاعات الحيوية للدولة الإسلامية، وهي الحالة الاقتصادية "فيمنع [المحتسب على إثرها] الاحتكار، والغش، ويحدد الأسعار، ويراقب مالية الدولة. وله أن يصدر الأحكام وينفذها بما يحقق مصلحة الجماعة."[٨] وهي الوظيفة التي لخّصتها كتب المتقدّمين بـ"أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله."[٩] وأضاف إليها ابن الأخوة (توفي ٧٢٩هـ) المتأخر نوعاً ما بنداً آخر هو "إصلاح بين الناس،"[١٠] مما يشير إلى نزعة توسيعية لمقاصد الحسبة. لكن على الرغم من ذلك، فدلالة الجذر اللغوي "ح-س-ب" يسمح بكل تأكيد من تمديد دائرة الحسبة إلى مجالات أكثر تخصيصاً؛ لما تسمح به معان أخرى يضمّها: العدّ والحساب، وطلب الأجر والثواب من الله، والاكتفاء به، وحسن التدبير في الأمور، والنظر في مآلاتها، والإنكار، والجودة، والمستوى، وحسن النية والمقصد، والتنشئة، والاختبار، والسبر.[١١] وهي التخصيصات التي لا تسمح للحسبة العلمية التي نحاول إبرازها، وتجلية

[٧] القنوجي، صديق بن حسن. **أبجد العلوم**، إعداد: عبد الجبار زكار، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨م، ص٢٦.

[٨] الكفراوي، عوف محمود. **الرقابة القضائية على مالية الدولة الإسلامية**، القاهرة: مطبعة الانتصار لطباعة الأوفست، ١٩٩٨م، ص٦٨.

[٩] ابن الأخوة، ضياء الدين محمد بن محمد. **معالم القربة في أحكام الحسبة**، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م، ص١٣.

[١٠] المرجع السابق، ص١٣.

[١١] إمام، محمد كمال الدين. **أصول الحسبة في الإسلام: دراسة تأصيلية مقارنة**، القاهرة: دار الهداية، ط١، ١٩٨٦م، ص١٤. انظر أيضاً:

– عثمان، إدريس محمد. "الحسبة في النظام الإسلامي: أصولها الشرعية وتطبيقاتها العملية"، (رسالة ماجيستير، منشورة الكترونياً www.achabibah.com/kutub/alhisbah.doc)، ص٦١-٦٢.

اتجاهها في هذا المقال، إلا أن تكون فرعاً أساسياً في الحسبة العامة التي تقع على العمران الإنساني.

إن الشروع في التخصيص، وتفريد الحسبة العلمية بالبحث، والاعتناء لم يكن موضوعاً جديداً كفكرة عامة، فالذي يطّلع على ما كتبه الماوردي (توفي ٤٥٠هـ)، والفراء (توفي ٤٥٨هـ) في "الأحكام السلطانية" في أبواب الحسبة، يدرك جيّداً حضور هذا الوعي العلمي الدقيق عندهما من خلال الإجابات التي عرضاها لأسئلة جدّ دقيقة، تدخل في التأسيس الأصولي لعلم الحسبة. فتمييزهما بين "المحتسب" و"المتطوّع" في تسعة أوجه من الفروق، أهمّها حق المحتسب في الاجتهاد في العرف دون الشرع،[١٢] ومقارنتهما بين ولاية المظالم والحسبة...،[١٣] وكذلك بعض الفصول التي وردت في مصنفات الشيزري، وابن الأخوة وغيرهما كالحسبة على مؤدبي الصبيان، والحسبة على القومة والمؤذنين، والحسبة على الوعاظ، والحسبة على الأطباء، ...كلها تمهيدات أصيلة في اتجاه صياغة هذا التخصص العلمي في الحسبة العامة.

فقد احتلت الحسبة العلمية مجالاً واسعاً في كتب الحسبة، ولئن لم تعلُ مكانتها إلى مكانة الحسبة على الصناعات والحرف، نظراً لجملة من العوامل، أهمّها: التعدد والتنوع في الثانية، بينما انحصرت المجالات العلمية في عدد محصور من الأنشطة. ونعرض هنا إلى جرد إحصائي لأبواب الحسبة العلمية في كتب الحسبة المعتمدة، لبيان حجم التداول، والتنظير اللذيْن أخذتهما في كتب التراث. ونبدأ بكتاب "الرتبة في طلب الحسبة" للماوردي، الذي قسّمه إلى سبعة وستين باباً، خصّص الباب الثالث والأربعين للحسبة على مؤدبي الصبيان، والباب الخامس والأربعين للحسبة على الوعاظ، والباب السادس والأربعين في الحسبة على المنجمين، وكتاب الرسائل، والباب الثاني والستين للحسبة على القرائين.[١٤] بينما قسّم صاحب أشهر كتب الحسبة عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله

[١٢] الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين. **الأحكام السلطانية**، تصحيح: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٨٥. انظر أيضاً:
– الماوردي، أبو الحسن علي محمد بن حبيب. **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، الكويت: مكتبة دار القتيبة، ط١، ١٩٨٩م، ص٣١٥-٣١٦.

[١٣] الفراء، **الأحكام السلطانية**، مرجع سابق، ص٢٨٧.

[١٤] الماوردي، أبو الحسن علي محمد بن حبيب. **الرتبة في طلب الحسبة**، بيروت: دار الرسالة، ٢٠٠١م.

العدوي الشيزري (توفي ٥٨٩هـ)كتابه: "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" الشيرازي، إلى أربعين باباً، وخصّص منه باباً واحداً فقط للحسبة العلمية، وهو الباب الثامن والثلاثون منه للحسبة على مؤدبي الصبيان.[١٥]

ولا ننسى ابن رفعة (توفي ٧١٠ هـ) والذي كان أول من تنبه إلى أهمية كتاب الماوردي في الحسبة، وتأثر به ونقل عنه، وقد قسم كتابه "الرتبة في الحسبة" إلى سبعين باباً، تناول الحسبة العلمية في ثلاثة أبواب منها، فقد خصّص الباب السادس والأربعين منها للحسبة على مؤدبي الصبيان، وخصّص الباب الثامن والأربعين للحسبة على الوعاظ، والباب التاسع والأربعين للحسبة على المنجمين وكتاب الرسائل.[١٦] ويليه من حيث الترتيب الزمني كتاب "معالم القربى في أحكام الحسبة" لابن الأخوة محمد بن محمد بن أحمد ضياء الدين (توفي ٧٢٩هـ)، الذي قسّمه إلى سبعين باباً، خصّص الباب السادس والأربعين للحسبة على مؤدبي الصبيان، والباب الثامن والأربعين للحسبة على الوعاظ، وكذا خصّص الباب التاسع والأربعين للحسبة على المنجمين وكتاب الرسائل، وخصّص الباب الخامس والستين، للحسبة على القرائين.[١٧]

بينما اختلف عمر بن محمد بن عوض السنامي (ق ٨هـ) في كتابه: "نصاب الاحتساب" عن طريقة كتابة سابقيه وتقسيماتهم من ناحية ترتيب الأبواب، والموضوعات، وبدا التوجه الحنبلي واضحاً في تفاصيل كتابه، الذي قسّمه إلى أربعة وستين باباً؛ خصّص الباب الخامس عشر للاحتساب في المسجد، والسابع عشر للاحتساب على الخطباء، وخصّص الباب الثالث والأربعين للحسبة في باب العلم والمعلم، والباب الرابع و الأربعين للاحتساب على السحرة والزنادقة والسوقة، والباب السابع والخمسين في الاحتساب على الطيرة والتكهن والتنجيم.[١٨]

وفي الختام يأتي كتاب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" لابن بسام المحتسب (ق ٩هـ) الذي أفاد بعمق من كتابي الشيرزي، وابن الأخوة، وقد قسّم كتابه إلى مائة وثمانية عشر

---

[١٥] الشيزري، عبد الرحمن بن نصر. **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، بيروت: دار الثقافة، ١٩٨١م.

[١٦] ابن رفعة، أبو العباس أحمد بن محمد. **الرتبة في الحسبة**، تحقيق: طبري بلال، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

[١٧] ابن الأخوة، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، مرجع سابق.

[١٨] السنامي، عمر بن محمد. **نصاب الاحتساب**، الرياض: دار العلوم، ١٩٨٢م.

باباً، خصّص الباب الخامس والسبعون للحسبة على معلمي الصبيان ومعلمات البنات، كما خصّص الباب الثاني والثمانين في الحسبة على الوراقين والمهرجين، وهو أول من أفرد للوراقين باباً خاصاً بهم، وتحدث عن الأخطاء التي يقعون فيها، وهو باب كبير من أبواب الحسبة كما سنذكر. والباب الثالث والثمانين للحسبة على من يكتب الرسائل في الطريق والرقاع، كما خصّص الباب السابع والثمانين للحسبة في إصلاح الجوامع والمساجد، وكذا خصّص الباب التسعين للحسبة في المراصد والمراقب.[١٩] هذا بالإضافة إلى المباحث والفصول التي خصّصت في كتب الفقه، والسياسة الشرعية للاحتساب، والتي لم تخل في مجملها من تخصيص الكلام في الحسبة على المعلمين، والمدراس، والمساجد. ولعل من القلة الذين أكثروا من التفريع، والتطرق لقضايا الحسبة العلمية في غير ما باب، وفي مسائل دقيقة هو العقباني التلمساني (توفي٨٧١هـ) في كتابه "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر"[٢٠] الذي أطّر في كثير من موضوعات كتابه لما نصطلح عليها في بحثنا هذا بالحسبة العلمية.

ويضاف إلى ذلك الآراء التي منحت المحتسب وظائف مميزة تفصله عن باقي الولايات، كما أشار إلى ذلك ابن تيمية (توفي ٧٢٨هـ)، حين أكد على أن المحتسب له "من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة، والقضاة، وأهل الديوان، ونحوهم."[٢١] وكذلك القنوجي في تعريفه حين قال: "وهذا العلم من أدق العلوم، ولا يدركه إلاّ من له فهم ثاقب، وحدس صائب؛ إذ الأشخاص، والأزمان، والأحوال ليست على وتيرة واحدة، فلا بدّ لكل واحد من الأزمان، والأحوال سياسة خاصّة، وذلك من أصعب الأمور، فلذلك لا يليق بمنصب الاحتساب إلاّ من له قوّة قدسيّة مجرّدة عن الهوى."[٢٢]

---

[١٩] ابن بسام، محمد بن أحمد. **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، بيروت: دار المعارف، د.ت.

[٢٠] التلمساني، أبو عبد الله العقباني. **تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**، تحقيق: على الشنوفي، دمشق: المعهد الثقافي الفرنسي، ١٩٦٧.

[٢١] ابن تيمية، تقي الدين أحمد. **الحسبة في الإسلام**، تحقيق: سيد محمد بن سعدة، الكويت: مكتبة دار الأرقم، ط١، ١٩٨٣م، ص١٦.

[٢٢] القنوجي، **أبجد العلوم**، مرجع سابق، ص٢٦.

إن ما قام به هؤلاء العلماء وآخرون أمثال حاجي خليفة (توفي ١٠٦٨هـ)، ومحمد علي التهانوي (توفي ١١٥٨هـ)، وغيرهما هو نقل الحسبة من مجرد فعل، وموقف إنسان مسلم من وضع يخالف تعاليم الدين عقيدةً، وشريعةً، وأخلاقاً إلى علم مستقل له من الشروط الأصولية ما للعلوم الأخرى المتداولة في العالم الإسلامي، سواء كانت تنتمي إلى مجموعة العلوم الشرعية، أو علوم العمران البشري أو علوم العمران الطبيعي. لكن، مع ذلك، تبقى بعض الصعوبات واردة في معرفة جزئيات أُخر حول تطور الحسبة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مواقف علماء آخرين كابن خلدون (توفي ٨٠٨هـ) الذي لم يعط موضوع الحسبة حقه في التوسيع والتطوير، بالرغم من دفعه إياها (الحسبة) إلى مستوى أعلى، وذلك بإدراجها في قائمة العلوم التي أرَّخ لها، وناقش نظريتها، وفسّر تطورها، وبيّن مجالاتها، وعلاقتها بالعلوم الأخرى الشرعية، والعمرانية على سواء، وأثرها في نمو العلوم، وتوجهاتها العملية على غرار العلوم الأخرى. لقد اكتفى ابن خلدون بعرضها في ما لم يزد عن سبعة عشر سطراً ضمن كلامه عن "الخطط الدينية الخلافية" نسبة إلى نظام الخلافة،[٢٣] في حين نجد أنه عقد فصولاً كاملة لأشباه المعارف كـ"السحر والطلمسات" و"أسرار الحروف". وأما مؤرخ العلوم العثماني، طاش كبري زاده، فقد عدّ الاحتساب علماً، لكنه أشار إلى أن علم السياسة المدنية اشتمل على بعض لوازم منصب الحسبة، وهو السبب الذي عدّه وراء عدم توفر مصنّف خاص بمسألة الاحتساب.[٢٤]

والحسبة العلمية، مقارنة إلى الحسبة العامة، التي كثيراً ما تركز على أداء الوظائف المهنية، وولايات الملك التي يقوم بها الإنسان المسلم فرداً وجماعة، لسد حاجاته في المعيشة، وتوابعها، تظهر مجالاً أكثر اتساعاً، وتعقيداً لإدارته؛ لأن المحتسب فيها تلزمه شروط تخصصية إضافية تجعله أكثر وعياً ومعرفة ودراية بتلك المجالات العلمية التي يحتسب عليها. إذن، فالفرق الأساسي بين الحسبة العامة، والحسبة العلمية هي تلك الشروط العلمية، والتعليمية التقنية التي تُحمل على المحتسب فيها حتى يؤدي دوره وفق

[٢٣] ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، تحقيق: عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء: بيت الفنون والعلزم الآداب، ٢٠٠٥م، ج١، ص٣٧٩-٣٨٠.

[٢٤] طاش كبري زاده، **موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، مرجع سابق، ص٨٧-٨٨.

مقاييس الإتقان، والإحكام، والفعالية. وكما أن الحسبة العامة تسعى إلى طرد كل المنكرات في حياة المسلم الفردية والجماعية، فكذلك الحسبة العلمية تسعى إلى تطهير مجال العلوم، وتطبيقاتها من المخالفات العقائدية، والتصورية، والتربوية، والتقنية، والعملية الممارسة، والتوظيفية عن طريق هيئات ومؤسسات منظمة، إلى جانب الجهود الفردية الحرة التي تساهم نظرياً في صياغة خطاب الحسبة العلمية الموجّه إلى مجالاتها المحددة.

ثانياً: شروط ممارسة "الحسبة العلمية"

أ. العقدية الصحيحة:

إن الذي يجعل الحسبة العلمية مختلفة عن غيرها من التنظيمات العلمانية، هو ارتباطها بالعقيدة الدينية، ونظامها، وأحكامها، ومقاصدها. ولهذا السبب يكون أول شرط تنبني عليه، هو تحقيق الوعي، والمعرفة، والتأسي بجانب العقيدة، وأصل ذلك كما قال ابن تيمية: "أن تعلم أن جميع الولايات في الإسلام مقصودها أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا. فإن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخَلْق لذلك، وبه أنزل الكتاب، وبه أرسل الرسل، وعليه جاهد الرسول ﷺ والمؤمنون."[٢٥] وقاعدة هذا الأصل تحقيق الإيمان، والتركيز على تنميته؛ لأنّه الشرط الأكبر للأداء الجيد لهيئة الحسبة العلمية، وهذا الإيمان كما أشار إلى ذلك حبنكة الميداني "هو الركن الأساس الذي بدأ به الإسلام في تكوين شخصية المسلم؛ لأنه هو الجذر الأول في بناء شخصيته، وهو العنصر الأساسي المحرك لعواطفه، والموجه لإرادته. ومتى صحّت عناصر الإيمان في الإنسان، استقامت الأساسات الكبرى لديه، وكان أطوع للاستقامة على طريق الحق، والخير، والرشاد، وأقدر على التحكم بأنواع سلوكه، وضبطها فيما يدفع عنه الضر، والألم، والمفسدة، العاجل من كل ذلك والآجل، وفيما يجلب له النفع، واللذة، والمصلحة العاجل من كل ذلك والآجل."[٢٦] وإلا أصبح الأمر لا أصالة فيه، ولا فائدة أن تنسب

[٢٥] ابن تيمية، **الحسبة في الإسلام**، مرجع سابق، ص٨.

[٢٦] الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة. **العقيدة الإسلامية وأسسها**، دمشق-بيروت: دار القلم، ط٢، ١٩٧٩م، ص٣١.

تلك الخطة أو الولاية إلى الإسلام. والسؤال المطروح هو لماذا يكون شرط العقيدة هو الأساس للحسبة العلمية بصفة خاصة؟

إن الناظر في حياة العمران البشري يجد أن المجالات التي تكون من اهتمامات الحسبة، والمنتسبين إليها هي التي تكون فيها النسبة المتوقعة لحدوث الأضرار على الإنسان مرتفعة، فالذين يقعون أو يمارسون أو يسببون تلك الأضرار لا شك في أن كثيراً منهم تحت ظروف نفسية، وروحية، ومرضية، مستعدّين للدفاع عن أفعالهم بشتى الوسائل، وبأي ثمن ما دام المقابل قسطه الأكبر مصلحة خاصة، فلهذا نجد مثلاً أن المنتسبين إلى الحسبة، ممن يغريهم أصحاب الصنائع بالأموال، والمكتسبات المادية التي تجعلهم في أقل تقديرٍ، أقل فعالية في أداء واجب الحسبة إنْ لم يرتكبوا المحرمات، في الوقت الذي كان المطلوب منهم هو أداء الواجب الديني الذي يحتسب أجره عند الله، ولا سيّما أن ولاية المحتسب لها درجة عالية من التحرر، والاعتماد على النفس، وفجوات الفراغ، وفرص الانفلات، والخلوة.[٢٧]

إن العامل المانع الأقوم الذي يستطيع مقاومة هذه الظروف المؤثرة على النفوس الضعيفة، والتي ترفع دوافع ارتكاب المخالفة، لا يكون إلا العقيدة التي تجعل المحتسب دائماً وأبداً تحت الشعور الحقيقي بمراقبة الله عزّ وجل، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤) وفي حديث الإحسان أن رسول الله ﷺ قال: "...قَالَ مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ."[٢٨]

فالعقيدة التي تشترط لأداء ولاية الحسبة، يتعدى مدلولها ذلك الاكتساب الوراثي الديني من الآباء، الذي غالباً ما يجعل استيعاب العقيدة تجزيئيا سطحياً، يغلب عليه قلة الوعي والمعرفة، وضعف التأسي والممارسة، وانفصال الفكر عن العمل. إن العقيدة التي تدخل في شرط الحسبة العملية تكون كاملة حاضرة في شخصية المحتسب بوصفها مبادئ

[٢٧] في هذا المضمار يذكر صاحب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" أن بعض المحتسبين تقلدوا مناصبهم بالرشوة، والمحسوبية مما هزّ من جوهرية دور الحسبة في مكافحة الفساد في مراحل عدة في التاريخ الإسلامي. انظر:
– ابن العماد، عبد الحي بن أحمد. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دمشق: دار ابن كثير، ١٩٨٦م، ج٧، ص١٣٢.

[٢٨] البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، باب: سؤال جبريل عليه السلام رسول الله (ﷺ)، حديث رقم٤٨.

وحقائق إلهية يقينية مقدّسة، ونظاماً كونياً شاملاً، وأحكاماً ثابتة، وعدالة مطلقة، ونظام عمل وإحكام. هذه الشروط لا يمكن للمحتسب أن يجنيها من ذلك "التدين الوراثي"، ولهذا فهو يحتاج إلى التكوين وفق برامج دينية مناسبة، تتمكن من غرس هذا الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية في شخصيته. وهنا يمكن أن نشير إلى الأمر الذي يسهّل تحقيق هذا الشرط، وهو فهم الرابط الذي يجمع العقيدة ومقاصد الشريعة الإسلامية. فجوهر فعل المنتسب إلى هيئة الحسبة العلمية يجب عليه أن يستوعب العلاقات التي تجمع بين الصنائع التي ينظر فيها والحفاظ على تلك المقاصد الكلية التي تشمل الدين، والنفس وما يتعلق بها من الروح، والعقل، والعرض، والمال، والكون. إن نجاح هيئة الحسبة العلمية مقدّر بتوجيه القطاعات، والصنائع إلى خدمة هذه المقاصد والحفاظ عليها، فأيّة مخالفة أو فعل يسبب إضراراً بها، فلا بدّ أن يزال ويرفع.

ب. الكفاءة العلمية:

وهذه الشروط هي التي تعطي عمل الحسبة مادته الخارجية التي يمكن إخضاعها للتقويم والمحاسبة. وقد كان شرط المحتسب أن يكون عالما سنياً ضليعاً في الدين؛ ليستبين الحلال من الحرام، ويذكر التاريخ أمثلة عن بعضهم بلغوا شأنا عالياً في العلم. يذكر ابن حجر في حوادث سنة (٧٨١هـ) أن المحتسب جمال الدين أحضر بعض المشايخ المشهورين في عهده إلى منزله، ليقرأ عليهم الحديث، وقد كان ضليعاً فيه.[٢٩]

واللافت للنظر فيما تركه العلماء المسلمون من تراثٍ حول تحديد المقاييس الخارجية المقابلة للذاتية، لاستحقاق ولاية الحسبة في أي مجال يخص حياة المسلمين، هو نظام تقدير تلك الشروط وترتيبها وفق أصول منطق عمراني متزن، كالاعتماد على نظام القيم الثلاثي الذي يقوم على الضروري، والحاجي، والتحسيني، وهو النظام الذي اعتمدت عليه نظرية المقاصد كثيراً في أصول الفقه. كما تمكن العلماء المسلمون من وضع نظام الأفضلية الذي يعتمد على تحديد المتغير الحاسم في مجال معين من الحسبة، ثم يقيّم المعني وفقه، فالذي يتوفر فيه ذلك الشرط يُقَدَّم على غيره، وفي حالة التكافؤ يلجؤون إلى

[٢٩] ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. **إنباء الغمر بأبناء العمر**، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٩م، ج١، ص١٩٦.

وسائل الحسم الأخرى كالقرعة، ونظام الأفضلية. هذا ما نجده واضحاً على سبيل المثال في كتاب العز بن عبد السلام (توفي ٦٦٠ هـ) في كلامه عن "في من يُقدَّم في الولايات،"[٣٠] فقد استهل عبد السلام تحديده لمقاييس الحسبة في تحديد الرجل الكفؤ للقيام بالولايات باعتبار متغير "المعرفة"، وفي نظام الأفضلية يجب أن يعين "الأعرف"، لهذا قال: "يقدم في كلٍّ: الأعرف بأركانها، وشرائطها، وسننها، وآدابها، وسائر مصالحها، ومفاسدها، مع القدرة على جلب مصالحها، ودرء مفاسدها. فإن استوى اثنان في مقاصد الولايات أُقْرِع بينهما. وقد يقدّم بغير قرعة."[٣١]

ت. مهارات الإدارة والتوجيه:

كثيراً ما تميل الدراسات، والبحوث في الحسبة إلى التركيز على مفهوم "المراقبة"، ودفع الضرر الظاهر وفق الطرق التي وضعها الشرع الإسلامي، وأخذه بعين النظر الاتجاه الوظيفي لها، لكن الناظر المتمعن فيها، يجد أن ثمة دوراً آخر، لا يقل أهمية، يدخل في مجال مهام الحسبة العلمية، وهو الإدارة، والتوجيه، والتقويم، وهذا الدور –كما هو واضح– يقع مباشرة على طرق التعليم، ومناهجه، وسبل اكتساب الصناعات وأدائها وقيامها، والمقاصد العمرانية التي تتجه إليها لخدمة الإنسان. وهذا المعنى يوافق المدلول اللغوي للجذر "ح–س–ب"؛ ففي لسان العرب لابن منظور (توفي٧١١هـ) جاء معنى "الحَسنُ الحِسْبةِ في الأَمْر" بمعنى "حَسَنُ التدبير النَّظَرِ فيه"[٣٢] وكذلك في القاموس المحيط للفيروزآبادي (توفي ٨١٧هـ).[٣٣] وهذا كله ينصب على عملية التخطيط، وممارسة الاستشراف، وهي كلها أدوار تعكس وتفسر درجة الإتقان، والإحكام في أداء ولاية الحسبة العلمية. وتتجلى أهميته بوضوح في النتائج التي يتحصّل عليها في تقليص حالات المخالفات، ودرجة الأضرار التي كثيراً ما تقع بغير قصد أو عن جهل بما تقتضيه

[٣٠] ابن عبد السلام، العز. **الفوائد في اختصار المقاصد (القواعد الصغرى)**، تحقيق: إياد خالد الطباع، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٩٩٦م، ص٨٠–٨٥.

[٣١] المرجع السابق، ص٨٠.

[٣٢] ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط١، د. ت، مادة: حسب، ج١، ص٣١٤.

[٣٣] الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٧، ٢٠٠٣م، مادة: حسب، ص٧٤.

الصناعات من مآلات لا يعرفها إلا صاحب معرفة راسخة في ذلك المجال، وهذا يساهم في ظهور ظروف، وأحوال عمرانية؛ أي اجتماعية إيجابية تنطبق على المجتمع الذي تكون فيه "حالة الديانة" صحية وقوية، حين يكون الإنسان سَلِيماً في عقيدته، ومعتدلاً، وقوياً في فكره، ومستقيماً في سلوكه.

ثالثاً: مجالات الحسبة العلمية التطبيقية وخواصها

لا شك في أن ارتباط هذا النوع من الحسبة بالعلوم، يجعلها تتشكل على الصور التي تتخذها، والمجالات التي تستغرقها. فتاريخ العلوم والمعرفة في الإسلام يشير إلى أنها تنقسم إلى ثلاث مجموعات كبرى تتمثل في: علوم الوحي، وعلوم العمران البشري، وعلوم العمران الطبيعي أو الكوني؛ وكلها تقع تحت العقيدة التوحيدية الكلية الشاملة والثابتة. فهذه الصورة لبنية المعرفة العلمية في الإسلام، تجعلنا نحدد مجالات الحسبة العلمية بتلك الدوائر الكبرى التي يفرزها التصنيف الأساسي للعلوم، وشروطه المعنوية والمادية في الإسلام. ويضاف إلى ذلك الدوائر البشرية الأساسية التي تشمل: الأمة، والجماعة العامة، والجماعة العلمية، والجماعة المهنية أو الصنائعية، والمؤسسة الاجتماعية، والفرد وقدراته الذهنية (العلم والملكات)، والمهنية (الصناعة). فكل هذه المجالات تمثل المجال الحيوي الذي تتحرك فيه الحسبة العلمية وفق رؤيتها ومناهجها، ووسائلها.

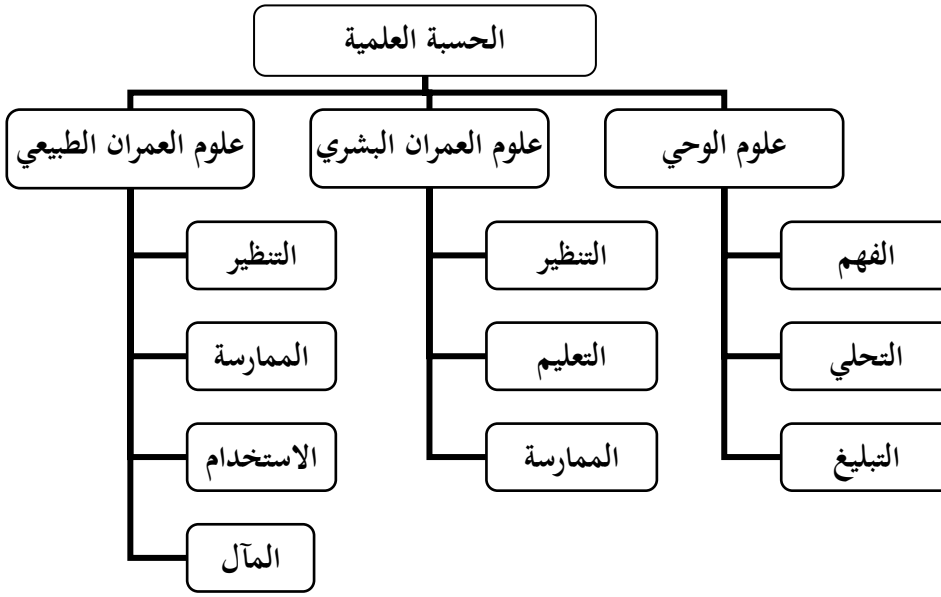

وهذا التصنيف تترتب عليه جملة من الأمور، تجعل من الحسبة العلمية ليست عملية عفوية أو فوضوية أو سطحية، بل نظاماً واجتهاداً وتدبيراً واستشرافاً لأحوال العمران البشري للأمة الإسلامية. ومن الأمور التي يجب ذكرها في هذا المقام ما يأتي:

١. الكليات القَبْلِية الأساسية الثابتة:

إن جذور الحسبة العلمية لا تترك شكاً في قيامها على مبدأ كلي ديني، وهو إرضاء الله، وتحسّب أجره. وهذا الهدف الأسمى يقوم على جملة من القواعد العقدية، والمبادئ الكلية التي تتعلق بالله، والعالم المشاهد، والغيب، والإنسان، والحياة، والمجتمع، والعلوم، وكل حركة يقوم بها الإنسان فرداً وجماعة؛ وهي المبادئ التي تشكل الجذور الميتافيزيقيا للحسبة العلمية في الإسلام، بحيث إن كل ما يناقضها يسقط عنها بالضرورة. وهذه المبادئ ليست خارجية عن صاحب ولاية الحسبة العلمية، فهي تمثل شخصيته، وعقيدته، وتصوّره للعالم والعلم وكل ما يتعلق بحياته.

٢. التخصص العلمي:

يجعل هذا المبدأ الحسبة العلمية أكثر عمقاً، وأكثر تنظيماً، وأكثر مرونةً؛ فبحكم اختلاف مجالات المعرفة العلمية فلا بدّ من وجود اختلاف للمناهج، والوسائل، والقواعد العلمية والعملية، وتطبيقات المعرفة العلمية، وما ينتج عنه من أثر في حياة الإنسان والمجتمع. بحيث كلما استطاعت هيئة الحسبة العلمية التوغّل في التخصّصات كانت لها الرؤى أدق في احتساب، وإدارة المعرفة الناتجة عنها، وإلا حدثت انفلاتات خطيرة على الإنسان والمجتمع. إن مبدأ التخصّص لا يمنح المحتسب القدرة على التحكم فحسب، بل يفتح أمامه آفاق التوسع، والنماء، والتطور، والتنوع، وتحقيق الوجود، ومعرفة البدائل المناسبة؛ لسد ما يتطلبه العمران البشري من الوسائل المادية لعمارة الأرض، وتحقيق العبودية لله وحده.

٣. الوجهة العمرانية العملية:

الاتجاه نحو العمران وجهةٌ إسلامية أصيلة، فالعلم الذي لا ينبني عنه عمل، غير معتبر عند العلماء المسلمين أمثال أبي إسحاق الشاطبي (توفي ٧٩٠هـ) وفق قاعدته الخامسة في الأصول، التي تنص على أن "كل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي؛ وأعني بالعمل: عمل القلب، وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعاً."[٣٤] وهذا الشرط يبعد الحسبة العلمية عن الجدال العقيم، والفلسفات المجردة التي لا تمت بالصلة إلى الواقع الذي يعيشه الناس. إن الحسبة العلمية وفق هذا الشرط تدل على فكر، واجتهاد، وفعل إيجابي يهدف إلى البناء والإصلاح، لا الهدم والفساد أو تحقيق أغراض أخرى تخل بالتوازن والاعتدال الذي يجب على كل مسلم تحريه، والسعي إلى تحقيقه في الحياة، بل أكثر من ذلك فالحسبة العلمية تأخذ موقع دور علم الهندسة في البناء والتشييد، فكلما كانت دقيقة كان بناؤها أقوى وأدوم. هنا يمكن أن نشير إلى شكوى أطلقها أبو إسحاق الشاطبي حين بدأ مشروعه العلمي في التصحيح، والحسبة، والنقد قال فيها: "وكنت في أثناء ذلك قد دخلت في بعض خطط الجمهور من الخطابة، والإمامة ونحوها، فلما أردت الاستقامة على طريق؛ وجدت نفسي غريباً في جمهور أهل الوقت؛ لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد، ودخلت على سننها الأصلية شوائب من المحدثات الزوائد."[٣٥]

وبهذا المعنى تكون الحسبة العلمية نظاماً مقنناً وفق مقاصد الدين، والقواعد الشرعية في تحقيق المصالح، التي أتقن الفقهاء والعلماء بصفة عامة بيان معالمها. إن فعالية مؤسسة الحسبة العلمية تقاس بقدر ما تحققه من الأثر الإيجابي في التعمير، وحماية المسلم من العوارض والعوائق المادية التي تقف أمامه، وتقعده عن تحقيق ذلك القصد الأسمى الذي خلق من أجله. وهذا الشرط، كذلك، يساعد الحسبة العلمية على توفير شروطها المادية

---

[٣٤] الشاطبي، أبو إسحاق. **الموافقات في أصول الشريعة**، ضبط: عبد الله دراز، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، د.ت، ج١، ص٤٦.

[٣٥] الشاطبي، أبو إسحاق. **الاعتصام**، ضبط: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، المنامة: مكتبة التوحيد، ٢٠٠٠م، مج١، ص١٥.

وتطويرها في التوفيق والنجاح، كتطوير فروعها على سبيل المثال، وأساليب التدبير، وبناء المهارات المناسبة لأداء الواجب.

٤. التكامل المعرفي والوظيفي:

إن التقسيم الثلاثي لمجال الحسبة العلمية، لا يعني استقلال تلك الدوائر بعضها عن بعض، بل تمثل مجموعات وظيفية لا غير؛ يتكامل بعضها ببعض وفقاً للنظام المعرفي الإسلامي (Islamic epistemology)، وهكذا يكون الأصل في العلاقة بين تلك الدوائر التكامل لا الانفراد، والتقارب لا التباعد. وأهم من هذا كله هو النظام الذي يقوّم هذا التكامل، والذي يعطي بلا شك الإمامة العلمية لعلوم الوحي، ثم علوم العمران البشري، وأخيراً تأتي علوم العمران الطبيعي، وهذه هي الصيغة الوحيدة للتوازن، والاستقامة العلمية. فالحسبة العلمية التي أعطت أولوية للعلوم الطبيعية، أصبحت الآن تعاني مشكلات أعمق من المعرفة ذاتها؛ لأنها أنست الخالق، واستغربت الإنسان، وجعلته تابعاً للعالم المادي الذي صنعته معرفة العمران الطبيعي حتى بات موقعه في الكون ليس أكثر من جملة الأشياء التي تكوّن العالم المادي.

٥. التقويم الثلاثي للحسبة العلمية:

من المعاني الأساسية للحسبة هو الحفاظ على مستويات عالية في أداء الوظائف العلمية، وما ينتج عنها من الخدمات العمرانية التي تعود على الإنسان بالفائدة، وإحداث التغيير الإيجابي باستمرار، وفق ما يطلبه معيار الجودة في مختلف المجالات. لكن لتحقيق هذا القصد الشامل، لا بدّ من مراعاة التدرّج، والأخذ بعين النظر طبيعة الوظائف العلمية، والشروط العمرانية التي تحيط بها. فهذا يلزم عنه تقسيم عمل الحسبة العلمية إلى مستويات بعضها فوق بعض. وقد يكون ما ذكره الفرّاء (توفي٤٠٧هـ) في المقاييس الثلاثة، ومضاداتها المعتمدة في محاسبة أهل الصنائع في الأسواق، وهي ذاتها يمكن اعتمادها في المجالات الأخرى التي تخضع للحسبة العلمية، وهي تتمثل في: الوفاء والتقصير، والأمانة والخيانة، والجودة والرّداءة.[٣٦] ولكي تكون هذه المقاييس أكثر شمولية

[٣٦] الفراء، **الأحكام السلطانية**، مرجع سابق، ص٣٠٢.

نضيف إليها إحداثية أخرى هي (الخطأ، والصواب)، وبذلك يظهر عمل الحسبة العلمية ودورها في أربعة مستويات متميزة، تبدأ بتحقيق الصواب وتجنب الخطأ، ثم تقدير نسبة الجهد (الوفاء والتقصير)، ثم النظر في التدابير المحافظة (الأمانة والخيانة)، وأخيراً تصل إلى مستوى تقويم عناصر الإحكام والإتقان، وما يخلّ بها؛ أي الجودة والرّداءة.

رابعاً: "الحسبة العلمية": المنهجية والضوابط

١. منهجية التعليم والتربية (التلقي):

أدت الحضارة الإسلامية أدواراً علمية مختلفة في نقل المعرفة الإنسانية وإنمائها وتمحيصها، وتمكّنت من تحقيق إسهامات عالمية من قبيل اكتشاف علوم جديدة كالجبر،[٣٧] والبصريات،[٣٨] والجراحة في الطب،[٣٩] وعلم العمران البشري،[٤٠] كما أسهمت في تطوير العلوم الموروثة أو علوم الأوائل كما سماها المسلمون كالفلك، والكيمياء، والرياضيات، والهندسة، وتصحيح النظريات، ونقدها وفق معطيات جديدة حصل عليها المسلمون باستخدام المنهج التجريبي، كما حدث في علم الفلك،[٤١] والطّب،[٤٢] وأخيراً تمكن المسلمون من إبعاد نمط من المعارف كانت تعدّ علوماً عند غيرهم أو "أشباه العلوم" (pseudo-sciences)، بناءً على مقاييس أصولية مبنية على مرجعية الوحي، وهي تتمثل في "السحر"، "والكيمياء السحرية"، و"أسرار الحروف"، والمعارف العُرافية أو السحرية الخفية الأخرى التي تندرج تحتها، إضافة إلى ردّ معارف أُخر تحمل خصوصيات حضارات أُخر لا تتناسب مع الروح الإسلامية كالفلسفة الإلهية المتجذرة في الإلهيات اليونانية، والإغريقية الوثنية.

[٣٧] أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي (توفي ٢٣٢هـ)، في كتابه "الجبر والمقابلة".

[٣٨] أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم (توفي ٤٣٠هـ)، "البصريات".

[٣٩] أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (توفي ٤٠٤هـ)، "التصريف لمن عجز عن التأليف".

[٤٠] ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق.

[٤١] راجع على سبيل المثال:

– إسهامات أبي عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني (توفي ٣١٧).

[٤٢] لمعرفة تفاصيل أكثر الإسهامات المذكورة، قم بزيارة الموقع الأكاديمي (muslimheritage.com)، فهو ينشر عشرات من الدراسات العلمية القيمة في مختلف المجالات.

بالإضافة إلى كل هذا، فإن المسلمين شيّدوا مؤسسات انحدرت كلها من المؤسسة الربانية، وهي المسجد الذي كان أوّل أمر قام به الرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة؛[٤٣] وهي المؤسسة الأم التي انبثقت منها المؤسسات الأُخر التعليمية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والإدارية. فظهرت المدرسة، والمكتبة، والخزانة، ودار العلوم، والجامعة، وديوان الإنشاء، وبيت المال، والدستور أو الصحيفة، ونظام الوقف، وولاية الحسبة، والقضاء، والمستشفى،...وكل ما تعلّق بمكونات المجتمع والأمة الإسلامية، وهي الحالة التي تناقض تماماً وضعنا الحالي الذي يعاني من سقم في المفاهيم، وانفصالية فصامية عن وحي السماء، ومفهوم الاستخلاف.

إنَّ الذي يهمنا هنا بالقدر الأكبر، هو السعي لعرض حالات القوة، والوعي، والنظام، والريادة، والصلاح التي عاشتها الأمة الإسلامية في الأزمنة المختلفة من تاريخها، بداية من العصر الذهبي الذي كان فيه رسول الله ﷺ هو القائد، ومن جاء من بعده من الخلفاء الراشدين، ومن صلح من بعدهم من الولاة والأمراء السلاطين. لكن قبل أن نعرض أنموذجاً للإدارة، والرقابة السليمة لشؤون المسلمين في التعليم، يجب أن نشير إلى أن أنماط الإسهامات التي أشرنا إليها، لا يمكن أن تتحقق إلا إذا وجد نظام شامل دقيق يدير، وينظم البحث العلمي، وينشر المعرفة في المجتمع بكل أبعاده. فلا يمكن تصور ذلك الإنجاز دون وجود القاعدة التنظيمية التي تفرزه.

إنَّ الحسبة العلمية في هذا المجال تمثلها مجهودات مختلفة، قد تبدأ بمجرد وصفٍ للأحوال التعليمية وظروفها، ثم نقد اتجاهاتها، وقد ترتقي في كمالها إلى طرح نظرية كاملة، ووضع نظام عملي يحققها في ذلك الواقع المعني. هذه الخطوات نجدها واضحة المعالم في إسهامات ابن خلدون في هذا المجال؛ ففي فصل "في تعليم الولدان، واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه"، يعرض لطرق تعليم الولدان القرآن في العالم الإسلامي، وأجرى مقارنة بين المشرق الإسلامي، والمغرب الإسلامي (المغرب، الأندلس، وإفريقية)،

[٤٣] راجع أحوال التربية والتعليم في عهد الرسول (ﷺ) في:
- الأنصاري، ناجي محمد حسن عبد القادر. **التعليم في المدينة المنورة من العام الهجري الأول إلى ١٤١٢هـ**، المدينة المنورة: دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٣م، ص٩٧-١٣٨.

فوجد أن أهل المغرب دون الأندلس في تعليم الولدان؛ إذ يقتصرون على تعليم القرآن فقط، ولا يدرجون إلى ذلك أي شيء من حديث أو فقه أو شعر أو كلام العرب، على خلاف ذلك، فأهل الأندلس جعلوا أصل تعليمهم القرآن، لكن أعطوا اهتماماً كبيراً لتعليم القراءة والكتاب، وما تفرع عنها من مبادئ العلوم. وكذلك كان أهل المشرق، فقد كانوا "يخلطون في التعليم" على حد توصيف ابن خلدون.[٤٤]

إنَّ المقياس النظري الذي اعتمد عليه ابن خلدون في وصف هذا الواقع التعليمي في البلاد الإسلامية، هو تحصيل المَلَكات لدى الطلبة، ولهذا أخذ على أهل المغرب طريقتهم التعليمية؛ لأن حصر تعليم الأولاد في القرآن وحده، مع النقائص التعليمية التي ذكرها كعدم فهم النصوص، لا يساعد في إظهار المَلَكات، وتطويرها لدى الولدان. فرأيه في المسألة هو اعتماد أصل القرآن في التعليم، مع إدراج المواد الأخرى التي تساعد الولدان على اكتساب مَلَكات ومهارات تساعدهم على الانتقال إلى مرحلة أعلى من التحصيل بأقل معاناة وصعوبات؛ ولهذا السبب نجد ابن خلدون يشيد بمحاولة أبي بكر بن العربي (توفي ٥٤٣هـ) في كتابه "الرحلة" الذي دعا فيه لتقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، ونهى أن يخلط في تعليم الغلمان إلا بشرط توفر "جودة الذهن والنشاط."[٤٥] ووصف ابن خلدون طريقته بـ"مذهب حسن"، وإن عارضته العوائد التي جعلت المباشرة بتعليم القرآن إيثاراً لغرض التبرك والثواب، وانتهاز الفرصة، لتحصين الولد قبل وقوع الآفات، والقواطع التي تحيل بينه وبين تعلم القرآن.[٤٦] إنَّ ما يتعلّق بالحسبة العلمية في هذا التحليل هو إثارة ابن خلدون لمقياس "الملكة" ومعرقل "العادة"، وهي عناصر تشكل المسائل التي تخوض فيها الحسبة العلمية.

المرحلة التالية التي يأخذنا إليها ابن خلدون في موضوع الحسبة العلمية، هي مرحلة النقد والتوجيه، وهو ما قام به بالفعل في الفصل الذي ذكرناه أعلاه، وهو الذي عنونه بـ"في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم" ورغم صغر حجمه (أربع فقرات فقط)[٤٧] إلا

[٤٤] ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٢٠-٢٢٣.
[٤٥] المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٣.
[٤٦] المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٣.
[٤٧] المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٤-٢٢٥.

أنه ذكر مسائل دقيقة غاية في الأهمية. وتمكن في هذا الفصل من عرض جملة من مقاييس الحسبة العلمية بصنفين من المفاهيم؛ إيجابية وتتمثل في: "انبساط النفس"، و"النشاط"، و"الخلق"، و"معاني الإنسانية"، و"الاجتماع"، و"التمدن"، و"العادة"، و"الحمية"، و"المدافعة"، و"صون النفس". وسلبية تتمثل في: "إرهاف الحد في التأديب"، و"سوء الملكة"، و"العسف والقهر"، و"الكسل"، و"الكذب"، و"الخبث"، و"المكر"، و"الخديعة"، و "الخرج". ولم يكتف ابن خلدون بعرض وجهة نظره في هذا الاحتساب العلمي فحسب، بل دعمها بالرسالة التي بعثها الرشيد (توفي ١٩٣هـ) لمعلم ولده خَلَف ابن الأحمر التي نصّها ما يأتي: "إنَّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصيّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له حيث وضعك أمير المؤمنين: أقرئه القرآن، وعرّفه بالأخبار، وروّه الأشعار، وعلّمه السنن، وبصّره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفْع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه، فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته، فيستجلي الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإنْ أبَاهُما فعليك بالشدة والغِلْظَة."[٤٨]

الخطوة الأخيرة التي شملتها الحسبة العلمية في هذه المسألة جاءت على شكل توجيه وتحفيز على الإحكام، واستكمال شروطه في طلب العلم. وكان ذلك في الفصل التالي الذي كان موضوعه حول "الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة" وأثره على زيادة الكمال في العلم.[٤٩] وأردف ذلك إلى أن المحاكاة والتلقين المباشر تنتج عنه ملكات "أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً،"[٥٠] ويرى أنه "على قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها."[٥١] كما أن هذه المحاكاة تفيد الطالب في معرفة المصطلحات في التعليم، والتمييز بينها وبين العلم الحقيقي ذاته. لأن تلك المصطلحات في رأي ابن خلدون ليست إلا "أنحاء التعليم وطرق التوصيل".[٥٢] هذا النموذج من الحسبة العلمية يطلعنا على ثلاثة

[٤٨] المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٥.
[٤٩] المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٦.
[٥٠] المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٦.
[٥١] المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٦.
[٥٢] المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٦.

ألوان من العمليات كما عرضناها بالتمثيل، وهي: "الوصف، والمقارنة لوضع تربوي معين" وهي عبارة عما يسمونه في اصطلاحات البحث العلمي "دراسة حالة"، ثم ممارسة التنظير، وبناء النظم البديلة لمعالجة ذلك الوضع، وأخيراً التحفيز والتوجيه، لتحقيق أهداف البدائل النظرية. على أن الخطوات المنهجية في هذا المضمار تمتد إلى مجالات تخصصية أخرى لا نرى بداً من ذكرها هنا حفاظاً على الوحدة الموضوعية للبحث.

٢. منهجية التأليف العلمي (الإنتاج) وضوابطه:

إنَّ نظرية ابن خلدون في الحسبة العلمية لم تتوقف عند الخطوات المذكورة، بل اتسعت أكثر لتشمل عملية التأليف وجودة المؤلفات، وهو مجال حيوي يشكل الأصول، والصور المعرفية التي يعتمد عليها الفرد والجماعة في التفكير، وتحديد مقاصد الاجتماع وأسلوبه. لقد أثار ابن خلدون من هذه القضية الجانب المنهجي البحت، في فصل من مقدمته عنونه بـ"في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف وإلغاء ما سواها."[٥٣] فقد بيّن أنَّ التأليف عملية طبيعية، وضرورية ترتبط بالنفس الإنسانية التي عدّها خزانة العلوم البشرية "بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصّل لها، ذلك بالتصوّر للحقائق أولاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً، إما بغير وسط أو بوسط، حتى يستنتج الفكر بذلك مطالبه التي يعنى بإثباتها أو نفيها. فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير، فلا بدّ من بيانها لآخر، إما على وجه التعليم، أو على وجه المفاوضة، تصقل الأفكار في تصحيحها."[٥٤] وهذا إقرار من ابن خلدون على طبيعة وجود الخلاف بين الأمم في اختيار الوسائط اللغوية في التأليف، وكذا الخلاف الناتج عن اختلاف الملل الذي يؤدي حتماً إلى اختلاف في التأليف حول تلك المسائل التي تخصها، كما أشار إلى وجود قواسم مشتركة في دوائر أخرى كالتأليف الفلسفي الذي قال فيه: "وأما العلوم الفلسفية، فلا اختلاف فيها، لأنها إنما تأتي على نهج واحد فيما تقتضيه الطبيعة الفكرية، في تصور الموجودات على ما هي عليه، جسمانيها، وروحانيها، وفلكيها، وعنصريها، ومجردها، ومادتها. فإن هذه العلوم لا تختلف."[٥٥]

---

[٥٣] المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٤.

[٥٤] المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٤.

[٥٥] المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٥.

لقد عرض ابن خلدون مقاصد التأليف، فقال إنَّ "الناس قد حصروها،"[٥٦] وهو الأمر الذي يجعلنا نفهم المقصود من تلك المقاصد فهي مقاييس عامة، صالحة لأيّة أمة بغض النظر عن تركيبها الحضاري والثقافي، وينبغي مراعاتها، لأنه ينبني عليها تحقيق الجودة، وهو مقصد من مقاصد الحسبة العلمية كذلك. وتتمثل هذه المقاصد التي وصفها بـ"جامعة" فيما يأتي: أولها: استنباط واكتشاف علم جديد بأصوله، وفروعه، ومسائله التفصيلية، مع الحرص على إيصاله بغيره، لتعم المنفعة به، ثانياً: التفهيم، والإبانة، والتوضيح، ثالثاً: التصحيح بالبرهان والتوثيق، رابعاً: الإتمام والإضافة، خامساً: التنظيم، والترتيب، والتبويب، سادساً: الجمع، والإظهار، والاستخراج، سابعاً: التلخيص والاختصار والإيجاز.[٥٧]

لم يكتفِ ابن خلدون بهذا القطع في التأكيد على تلك المقاييس المتعارف عليها عند كثير من الأمم، بل أشار إلى أصناف التواليف التي يجب على الحسبة العلمية أن تضع لها حدّاً؛ لأنها ليست إلا مظهراً من مظاهر الجهل، والوقاحة أو كما قال: "فهذا شأن الجهل والقحة."[٥٨] وهذه تتمثل في "انتحال ما تقدم لغيره من التواليف أن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيس من تبديل الألفاظ، وتقديم المتأخر وعكسه، أو يحذف ما يحتاج إليه في الفن، أو يأتي بما لا يحتاج إليه، أو يبدل الصواب بالخطأ، أو يأتي بما لا فائدة فيه."[٥٩] وفي ختام فصله حول مقاصد التأليف أكّد ابن خلدون أنَّ التواليف التي تفشل في تحقيق تلك المقاييس "فِعْل غير محتاج إليه، وخطأ عن الجادة التي يتعيّن سلوكها في نظر العقلاء."[٦٠]

٣. الرقابة والتنظيم المدرسي:

تهتم مؤسسة الحسبة العلمية بطرق التسيير الحضاري والعمراني للمنهجيتين السابقتين؛ إذ تتولى سبل التسيير الأفضل، والطريق الأكثر توفيقاً للحصول على أكمل

[٥٦] المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٦.
[٥٧] المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٦-٢٠٨.
[٥٨] المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٨.
[٥٩] المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٨.
[٦٠] المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٨.

نتيجة منتظرة من العملية التعليمية. وتاريخياً ظهر –وتحت إشراف مؤسسة الحسبة، ومع تطور النظام التعليمي في الحضارة الإسلامية– تنظيم جديد لشؤون المدارس والهيئات التعليمية، وهو نظام كان يطبّق تحت إشراف المحتسب، وسمي هذا المنصب الرقابي –في المدارس الإسلامية– بـ"العريف". وقد تحدّث عنه السبكي (توفي ٧٧١هـ) بإطناب في "معيد النعم ومبيد النقم"، وهو منصب ظهر في القرن السابع الهجري ويسمى "نقيب الطلاب". ووصفه السبكي بأنه المساعد الذي يحفظ النظام في الصف، ويُجلِس الزوار بحسب منازلهم، ويوقظ النيام، ويحذر الطلاب من ارتكاب الخطأ أو التقصير في أداء الواجب، ويحثهم على الإنصات لما يقال. ومن واجباته أيضاً إمساك السِّجِل، لتسجيل حضور الطلاب، فهو في الحقيقة طالب، لكن له أدوار منوطة به زيادة على جلوسه للتدريس.[٦١]

كما ظهر منصب آخر سمي بـ"كاتب الغيبة"، وهو صنفان: كاتب الغيبة على الفقهاء، وآخر كاتب غيبة السامعين، فالأول كما يقول السبكي يختص بإثبات الطلاب المتغيبين عن المجلس، ويجب أن يكون صادقاً، وألا يثبّت غياب أحد الطلاب إلا إذا لم يكن لديه عذر مقبول. أما الثاني فمهمته أن يسجل الغائبين، كما من واجبه أن يقيّد من لا يكتبون إملاء الشيخ رغم وجودهم في المجلس.[٦٢] وهاتان الوظيفتان عدتا مهمتين في النظام التعليمي الإسلامي؛ لأن الطالب المتغيّب دون عذر مقبول لا يجوز له شرعاً أن يعطى حصته من غَلّة وَقْف المدرسة. كما كان هناك منصب كاتب الغيبة للعدد الكبير من المتصدرين العاملين في المسجد الأموي بدمشق، الذين كان يجري عزل كثير منهم على الأرجح لبقائهم في بيوتم، وعدم حضورهم إلى الجامع لأداء أعمالهم.[٦٣]

واتسع مفهوم الحسبة العلمية في المغرب الإسلامي، ليستغرق كثيراً من تفاصيل الحياة التعليمية، فقد كان المحتسب يشرف على المدارس والكتاتيب بشكل مباشر، وكان يزور

---

[٦١] ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. **الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة**، حيدر آباد: مطبعة مجلس داشرة المعارف، ١٩٣١م، ج٣، ص٤١.

[٦٢] السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي. **معيد النعم ومبيد النقم**، بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٥م، ص٢١١. انظر أيضاً:

– ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة**، مرجع سابق، ج١، ص١٣٦.

[٦٣] ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٧٢.

المدراس بين الحين والآخر؛ ليتأكد من سلامة البنايات، والمحلات، ومراعاة قوانين الاعتدال في تأديب الصبيان، ومراعاة قواعد الشريعة في تعليمهم. وكان يمنع أدعياء العلم من التصدي لتعليم الناس أو علاجهم أو الفتوى لهم في الأحكام أو الجلوس للنظر في قضاياهم، وربما كانت جولاته أيضاً تتضمن حضور بعض الدروس والاطلاع على مناهج الدراسة وكتبها.[٦٤] ويعجّ كتاب الحسبة "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر" للعقباني التلمساني بالعشرات من صور الحسبة على المؤسسات التعليمية، ونشاط المحتسبين في صيانة الجودة والانضباط في التحصيل العلمي، والتنظيم التعليمي.[٦٥]

ولم يقتصر دور الحسبة العلمية على مراقبة شؤون الطلبة والمتعلمين ومراعاتها، بل تعدّاه إلى النظر في شؤون الشيوخ والمعلمين، وفحص مستوياتهم ومؤهلاتهم العلمية. يحكي ابن حجر قصة توضح بجلاء دور المحتسب في هذا المضمار؛ ففي سنة ٧٨١هـ في جمادى الآخرة منه عُقد مجلس بسبب عز الدين الرازي حين ولي تدريس الحديث في المدرسة المنصورية، فقام في ذلك الشيخ برهان الدين الأنباسي، والشيخ زين الدين العراقي وغيرهما وقالوا: "إن هذا لا يعرف شيئاً من الحديث" واحتكموا للمحتسب، الذي جمع المدّعين والمدّعى عليه في جلسة امتحان مفتوح، وأعطى عز الدين الرازي جزءاً من صحيح البخاري، ليقرأ فيه بالحاضر، فقرأ شيئاً، فصحّف في مواضع واضحة، فافتضح. وانفصل المجلس على ذلك، فأراد جمال الدين المحتسب ستر القضية فأخذ التدريس لنفسه من الناظر، واستمر في تدريس الحديث بنفسه، ثم استقر فيه ولده بعده إلى أن صار إلى كاتبه وهو ابن حجر نفسه.[٦٦] على أن المحتسب كان مسؤولاً وبشكل مباشر عن رفع التقارير للخليفة أو السلطان عن صيرورة العمل التدريسي، وإذا حدث وترامى إلى سمع السلطان إخفاق المدرس الذي عينه في مقام بأعباء مسؤولياته كاملة، تم إحضار المدرس للتحقق في الأمر بحضور المحتسب.[٦٧]

---

[٦٤] لقبال، موسى. **الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧١م، ص٧١.

[٦٥] التلمساني، **تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**، مرجع سابق، ص٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦،٢٥٨، ٢٦١.

[٦٦] ابن حجر العسقلاني، **أنباء الغمر بأبناء العمر**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٦.

[٦٧] ابن تغري بردي، يوسف. **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٠م، ص١٢. انظر أيضاً:

شملت آليات اختبار المعلمين والمدرسين أصحاب المهن الدقيقة ومدرسيها أيضاً مثل الطب. فقد طلب الخليفة العباسي المعتضد (توفي ٢٧٩هـ) من سنان بن ثابت رئيس الأطباء امتحان جميع الأطباء ببغداد، وكانوا حوالي ٨٦٠ طبيباً، وأمر المحتسب بعدم السماح لأي طبيب أن يُمارس مهنته إلا بعد اجتياز الامتحان.[٦٨] وقبل المعتضد كان هارون الرشيد أكثر شمولاً في فرض معايير الجودة والإتقان في صنوف المهن والصنائع، فقد ورد في مخطوطة "الذخائر والتحف في بير الصنائع والحرف" مجهولة المؤلف أن هارون الرشيد أمر بامتحان شيوخ الأصناف كشيخ العطارين، والحاكة، والجراحين، والأطباء، وغيرهم، وكانوا نحو من ثلاثة وسبعين شيخاً، فمن ثبتت جدارته أبقاه ومن ثبت جهله عزل.[٦٩]

٤. رقابة العمل المكتبي والحياة الثقافية:

لم يقتصر أمر مراقبة الحياة العلمية على مناهج التدريس، وآلياته، ومراقبة عملية الإنتاج المعرفي والثقافي، بل تعداه إلى المهن المرافقة لهذا الإنتاج والقائمة به، كحرفة الوراقة، كونها ممارسة وإنتاجاً للإبداع؛ فقد تصدى الفقيه عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي (توفي ٩٨١هـ) لموضوع منهجية الوِراقة، ضمن الرؤية الإسلامية، وذلك في كتابه المعروف بـ"المعيد في أدب المفيد والمستفيد" وتحديداً في الباب السادس من الكتاب، وظلت هذه المقالة من أبرز ما كتب في الموضوع الوراقي، في الثقافة العربية — الإسلامية، وباتت أساساً للمحتسبين في تعاملهم مع مهنة الوراقة والوراقين.[٧٠] وكانت المؤسسة السياسية والدينية في العصر العباسي قد اهتمت بمراقبة تجارة الكتب، والإشراف على

– السخاوي، محمد بن عبد الرحمن. **التبر المسبوك في ذيل السلوك**، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٢م، ص٢١٩.

[٦٨] ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن سديد الدين. **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٧م، ج١، ص١١٢.

[٦٩] معتوق، رشاد عباس. **نظام الحسبة في العراق حتى عصر المأمون نشأته وتطوره**، السعودية: دار تهامة، ١٩٨٢م، ص١٤٣.

[٧٠] سعيد، خير الدين. **موسوعة الوراقة والوراقين في الحضارة الإسلامية**، بيروت: دار الانتشار العربي، ٢٠١١م، ج١، ص٤٣.

حوانيت الوراقين ودهاليزهم، وتجار الكتب، لا سيما أن الإنفاق بسخاء على الكتب كان عادة جُبل عليها العرب المسلمون؛ لأنها كانت في اعتقادهم دليلاً على شرف النفس، وسلامتها. وأوكلت مهمة الإشراف على حوانيت الكتب وعلى تجارها إلى المحتسب للتدخل المباشر، وفرض العقوبات في حالة حدوث تدليس أو غش أو عند الخروج عن القواعد المتبعة في السوق. فقد ورد عند ابن بسام في باب الحسبة على الوراقين أنه ينبغي أن يُمنع المتطفلون على المهنة ولا يسامحوا بذلك، وأن يسترزقوا الله من وجوه غير هذه الوجوه؛ لأنه كذب، ومحال، وحرام. كما حذر ابن عبدون من شراء الكتب من اليهود والنصارى فقال: "يجب أن لا يباع من اليهود، ولا من النصارى، كتابُ عِلْمٍ، إلا ما كان من شريعتهم؛ فإنهم يترجمون كتب العلوم، وينسبونها إلى أهلهم، وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين."[٧١]

٥. إقامة الدين ورعاية التدين والجماعة:

إن الحفاظ على الدين في المجتمع من أهم الواجبات التي يجب على كل مسلم أن يؤدي القسط منها على نسبة القدرة، والاستطاعة، والعلم، ومهارات التعامل مع الناس، والدراية، والوعظ، والنصيحة، والنصرة، والتعاون؛ وذلك لأن سلامة ممارسة الدين، والدخول تحت شريعته وآدابه، تحفظ المجتمع من المشكلات التي تظهر فيه لضعف تمسك الناس به. إن الدين هو بمثابة نظام المناعة الأول والأخير في المجتمع، فالفساد الذي يحدث في العمران البشري سببه الرئيس ليس إلا بُعْد الناس عن تعاليم الدين الإلهي. ولمّا كان الدين شاملاً لكل مجالات الحياة وإدارتها، وهو الأسلوب الصحيح في التفكير، والعمل، والتعامل، يلزم عن ذلك أن كل المشكلات التي يعاني منها الإنسان فرداً وجماعةً، حلّها الأصلي يعود إلى إقامة الدين.

ثمة جملة من مجالات تدخّل الحسبة العلمية في جانب حفظ الدين والديانة، كون الدين مبدأ للتصور الذي تنبني عليه المعارف الكونية، والرؤية العامة الممتدة منها. ويندرج تحت هذا التخصص من أبواب الحسبة العلمية فروع نوردها كالآتي:

---

[٧١] ابن عبدون، محمد بن أحمد. **رسالة في الحسبة**، بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٩م، ص٥٤.

أ. حفظ العقيدة والتصور الكلي للحياة والكون:

أشار العلماء إلى عدد من المظاهر التي يجب على المحتسب أن يعالجها ضمن الظروف المرَضِيَّة التي تأتي على المجتمع المسلم من حين إلى آخر؛ إذ تكثر الشبهات، ويخاف على العقيدة من سوء الفهم، أو من دعوة منتحلة، وهذا الجانب سماه بعضهم "الغش والتدليس في الديانات."[٧٢] وهذه المظاهر تضم كثيراً من الانحرافات التي حدث جلّها بسب مخالفة الكتاب والسُّنة، وإجماع سلف الأمة من الأقوال والأفعال، وقد عرض بعضها ابن تيمية بقوله: "إظهار المُكاء والتصدية في مساجد المسلمين، ومثل سبّ جمهور الصحابة وجمهور المسلمين أو سبّ أئمة المسلمين، ومشايخهم، وولاة أمورهم المشهورين عند عموم الأمة بالخير. ومثل التكذيب بأحاديث النبي ﷺ التي تلقاه أهل العلم بالقبول، ومثل رواية الأحاديث الموضوعة المفتراة على رسول الله ﷺ، ومثل الغلو في الدين، بأن ينزل البشر منزلة الإله، ومثل تجويز الخروج عن شريعة النبي ﷺ، ومثل الإلحاد في أسماء الله وآياته، وتحريف الكلم عن مواضعه، والتكذيب بقدر الله، ومعارضة أمره، ونهيه بقضائه وقدره، ومثل إظهار الخزعبلات السحرية، والشعبذية الطبيعية وغيرها التي يضاهى بها ما للأنبياء، والأولياء من المعجزات، والكرامات، ليصد بها عن سبيل الله، أو يظن بها الخير فيمن ليس من أهله... فمن ظهر منه شيء من هذه المنكرات وجب منعه."[٧٣]

يُعد امتداد الحسبة العلمية في الدين في غاية من الشمول، والعمق، والقرب من أحوال الناس. ويكفي هنا أن نعطي مثالاً واحداً يبين هذه الصفة، فقد ألّف أبو علي بن محمد بن خليل السّكوني (توفي ٧١٧هـ) من فقهاء المالكية كتاباً سماه "المختار في كتاب لحن العامة والخاصة في المعتقدات"، وهو كتاب يمثل أنموذجاً قيّماً للحكمة العلمية المطبقة على حالة الديانة، والتديّن عند الناس، فبعد أن استدل بالآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠) انتقل مباشرة إلى القول: "مما علم بالدلائل: إنَّ الحسن ما حسّنه الشرع، فالإلحاد في أسمائه تعالى هو الخروج فيها عن الشرع، ولا خلاف بين علماء أهل السنة في منع كل

[٧٢] ابن تيمية، **الحسبة في الإسلام**، مرجع سابق، ص٤٩.

[٧٣] المرجع السابق، ص٤٩-٥٠.

إطلاق لم يرد به توقيف شرعي إذا كان يقتضي ما يستحيل في حق الله تعالى أو يمتنع في حق الأنبياء ورسله عليهم الصلاة والسلام، وفي حق دينه أو يوهم ذلك."[٧٤] لقد عالج هذا الكتاب الانحرافات العقائدية التي تحدث في اللحن الذي يمارسه الناس في دعائهم. ولهذا الغرض جاءت فصوله عبارة عن تحذيرات، وتصحيحات لأخطاء الناس في ممارسة الدعاء، فعلى سبيل المثال جاء التحذير من قول العامة "ياساكن السماء.."، "من يرى ولا يرى..."، "يا سيد كل سيد..."، "يا عماد من لا عماد له..."، "يا من لا يوصف ولا يعرف..."، إلى غير ذلك. كما جاءت تحذيرات أخرى ضد بعض القصائد، والأشعار، كتحذيره عليه الصلاة والسلام من أبيات قالها إبراهيم بن سهل اليهودي، وابن خميس فيها تعريض بالدين ومعنى ذلك.[٧٥] ولم يكتف صاحب الكتاب بعرض حالات الإلحاد في القول، والحكم عليها بتوفير الدليل فحسب، بل استطاع كذلك أن يبتكر أسلوباً علمياً هادئاً في الحوار، يقوم على عرض الأسئلة والردود الافتراضية التي قد يستعملها المعني للدفاع عن فعله المنحرف، ومثال ذلك الذي ينطق بدعائه بعبارة "يا من يَرى ولا يُرى"، فبعد أن ردّ هذا اللحن بدليل القرآن والسنة النبوية، انتقل إلى مرحلة النقاش، والحوار العلمي بافتراض أن صاحب العبارة سيردّ عليه بقوله: "أردت أني لا أراه في الدنيا"، فردّ عليه بقوله: "أتيت بلفظ مطلق في موضع تقييد، فكان إطلاقك ممتنعاً، وإنما ذلك للشارع فقط، كقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)."[٧٦]

ومن الأمثلة العملية على هذا المجال ما حكاه ابن حجر أنه في أوائل ذي القعدة من سنة (٧٨١ هـ) ادُّعي على الشيخ زين الدين عمر بن مسلم القرشي أنه مجسّم، وشهد عليه جماعة بكلام قاله يتعلق بالصفات، فرسم عليه جمال الدين المحتسب واختبره حتى تبين له وجوب سجنه، فقام القاضي برهان الدين بن جماعة في أمره إلى أن أُطلق بعد ستة أشهر.[٧٧]

---

[٧٤] السّكوني، أبو علي بن محمد بن خليل. **المختار في كتاب لحن العامة والخاصة في المعتقدات**، بيروت: شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٥م، ص٤-٥.

[٧٥] المرجع السابق، ص١٣-١٤.

[٧٦] المرجع السابق، ص٤-٥.

[٧٧] ابن حجر العسقلاني، **أنباء الغمر بأبناء العمر**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٧.

كما تدخل الخليفة المعتضد سنة (٢٧٩ هـ)، فأمر المحتسب بوضع حد للمناظرات العلمية التي احتدمت بين الفرق والمذاهب الإسلامية حمايةً للنسيج العام، وأمر بحظر المناظرات العامة، وأمر كذلك بأن لا يقعد على الطريق قاص، ولا صاحب نجوم، ولا زاجر. وحلف الوراقون أن لا يبيعوا كتب علم الكلام، والجدل والفلسفة.[٧٨] وبعد خمس سنوات عاد الخليفة ليحض الناس على نبذ التشيع الحماسي، ومنع الوعاظ من الوعظ في المساجد والطرقات العامة، كما منع باعة الكتب من عرض بضاعتهم في الساحات العامة، ومنع رؤساء حلقات الفتوى في المساجد وغيرها من عقد المناظرات، وأمر بمنع الاجتماعات من أي نوع، وفرض عقوبة الجلد على كل من أجمع لعقد المناظرات.[٧٩] كما نودي في زمن المعتضد بأن لا يجلس في المسجد الجامع قاضٍ أو منجِّم.[٨٠] كما أصدر الخليفة القادر بالله بيانه الشهير الذي حمل اسم "الاعتقاد القادري"، الذي وكّل للمحتسب أمر تطبيقه، والإشراف على تعميمه، وقد تمحور حول حفظ التصوّر الكلي للمسلمين، ووحدة الصف، وتحصين الذهنية المسلمة مما يحيف بها.[٨١] فقد تدخلت الحسبة العلمية حتى في حفظ الثقافة العامة، والمستوى العقدي العام. يتحدث السنامي في كتابه "نصاب الاحتساب" عن مجال من مجالات الحسبة، متعلق بمن مسّه الشيطان باللمم؛ إذ يجب منعه من الكلام بالغيب، واجتماع الناس حوله زاعمين أنه صادق، كي لا يحدث فتنة، ويؤثر في المستوى الفكري للعامة.[٨٢]

كما دخلت الحسبة العلمية على خط الصراع الساخن، لصدّ المد الشيعي الذي تدعمه دوله عبر التاريخ الإسلامي، فقد وظفت مؤسسة الحسبة للدفاع عن الإسلام ضد الفكر الطائفي في تأويل مضامين الدين، وتحريف أصوله ناهيك عن تفاصيله. فقد قام

---

[٧٨] ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، ج٥، ص١٢٢. انظر أيضاً:
– ابن الأثير، علي بن محمد. **الكامل في التاريخ**، بيروت: دار صادر، ١٩٦٥م، ج٧، ص٤٥٣.

[٧٩] ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، مرجع سابق، ج٥، ص١٧١.

[٨٠] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٥٣.

[٨١] ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٣٣.

[٨٢] السنامي، **نصاب الاحتساب**، مرجع سابق، ص٨٤-٩٢.

محتسبو العهد الأيوبي، والمملوكي في مصر بإحياء السُّنة، وتتبُّع بقايا التشيع في المجتمع المصري والشامي، وتطهيره مما فرضه الفاطميون.[٨٣]

ب. حفظ كيفيات العبادة الشرعية:

الامتداد الثاني للحسبة العلمية الذي من الواجب أن يجد له مكاناً من الاهتمام، هو حفظ العبادات، وأعمال التعبد؛ نظراً لارتباطها الوثيق بالتصور الكلي للمسلم لحقيقته ورسالته في هذا الوجود، ولا نجد حاجة ملحة للتدليل على وثاقة العبادة بمجال الحسبة العلمية، نظراً لكونها ركناً رئيسياً من الدين الذي يقوم عليه وبه العلم والتعلم، كما أن الفقه بها؛ أي العبادات يدخل في صلب عملية التعلّم، وقد وعى المسلمون الأوائل هذه الأهمية لها، فحرصوا على متابعة أداء المسلمين لعباداتهم، وعملوا على تقويمها، وتوجيهها؛ لتحقيق المقصود. ونعرض هنا أمثلة على ذلك: فمن شدة محافظة المحتسب على الصلاة، ووعيه لدورها الحضاري، وترغيبا للناس بآدائها، رتّب نجم الدين الطنبدي المحتسب من فقراء الفقهاء من يعلّم أصحاب الدكاكين من العامة الفاتحة، وفرائض الصلاة وذلك في سنة (٧٩٠هـ) على ما ذكر ابن حجر؛[٨٤] وحرصاً على التأطير الواعي للحس الديني، كان من مهام المحتسب الرقابة على الوعاظ والقراء، فلا يمكّن من ممارستها إلا من اشتهر بين الناس بالدين والخير والفضيلة، ومن يكون عالماً بالعلوم الشرعية وعلم الأدب، وأن يكون حافظاً لكتاب الله. وكان المحتسب يمتحن الوعاظ في هذه الأمور، فمن أجابها أجاز له العمل، ومن لم يجبها منع من ذلك، وإذا نهاه المحتسب عن ذلك وعاد إلى عمله عُزِّر.[٨٥]

ومن مسؤولية المحتسب متابعة قرّاء القرآن الكريم، فيأمرهم بقراءته مرتلاً كما أمر الله -عز وجل- وينهاهم عن تلحينه كما تلحن الأغاني والأشعار، فقد نهى عن ذلك

[٨٣] الشيرزي، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، مرجع سابق، ص٨. انظر أيضاً:
- المقريزي، أحمد بن علي. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: زيادة محمد مصطفى، القاهرة: دار الكتب، ١٩٧٠م، ج١، ص٩٤٠.

[٨٤] المرجع السابق، ج١، ص٣٥٢.

[٨٥] ابن الأخوة، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، مرجع سابق، ص١٧٩، ١٨٢.

الشرع.[٨٦] وللدلالة على مكانة المحتسب العلمية، وحرص الدولة على إشرافهم على الجوانب الفكرية، والدينية العبادية، فقد حدث في سنة (٧٨٨هـ) أن أنشأ السلطان برقوق الملقب بالظاهر مدرسة، وعيّن لها المدرسين، ثم أقيمت فيها خطبة في العاشر من شهر رمضان، وفوّض السلطان الخطابة والرقابة عليها إلى جمال الدين المحتسب.[٨٧] كما كان للمحتسب دور منهجي في ترتيب عملية الوعظ والإرشاد، فقد نهى المحتسب نجم الدين الطنبدي في سنة (٧٩٠هـ) قرّاء المواعيد والمواعظ عن التهتك، وذكر الناس وأصحاب المعاصي، وأمرهم أن يبدلوا به الصلاة والسلام على النبي ﷺ،[٨٨] حفاظاً على مستوى مجلس الوعظ والتعليم. وإتماماً لهذه المهمة، كان على المحتسب أن يتدخّل في عمل قَوَمَة المساجد؛ إذ أوجب عليهم عدم السماح للصعاليك بالدخول للمسجد أيام الجمعات نظراً لتشويشهم على الناس، ولا سيمّا الذين يحكون أخباراً، وقصصاً، ويشغلون الناس بسماع كلامهم عن ما حضروا لأجله. وكان المحتسب يرسل أعوانه لمساعدة قَوَمَة المساجد في هذه الأمور.[٨٩]

والمثال الأخير الذي نختم به هذا المبحث يتعلق بمؤلفات العلماء التي كان محورها محاربة "البدعة" في العبادات بأشكالها المختلفة، بالرغم من كل الشروط الموضوعية التي تكفل الله بتوفيرها للإنسان، ليجد طريقه إلى الدين الصحيح، ويفقه طريقة الامتثال والتأسي، إلا أن حكمة الله في الخلق تظهر أن تلك الأصناف من الشروط (الكتاب، والرسول، والقدرات، والتقويم) لم يعمل كثيراً على اتخاذها وسائل ربانية تقربهم إلى الخالق. فظهرت مصيبة البدعة، وهي عبارة عن "طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبُّد لله سبحانه."[٩٠] فالكتب التي تمثل الحسبة العلمية المتجهة إلى محاربة هذه الآفة كثيرة، حسبنا في هذا المطلب الإشارة إلى ما ألفه أبو إسحاق

[٨٦] ابن بسام، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، مرجع سابق، ص٢٦. انظر أيضاً:
– ابن الأخوة، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، مرجع سابق، ص١٧٨-١٧٩.

[٨٧] ابن حجر العسقلاني، **أنباء الغمر بأبناء العمر**، مرجع سابق، ج١، ص٣١٣-٣١٤.

[٨٨] المرجع السابق، ج١، ص٣٥٢.

[٨٩] الشيرزي، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، مرجع سابق، ص١١٧. انظر أيضاً:
– ابن الأخوة، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، مرجع سابق، ص١٧٢.

[٩٠] الشاطبي، **الاعتصام**، مرجع سابق، ج١، ص٤٣.

الشاطبي، وهو كتاب "الاعتصام". إنَّ الذي يطّلع على هذا الكتاب يجده غنياً بالمعلومات، ومتمكناً في تشخيص الظاهرة وتتبع مآلاتها، والخوض في العالم النفسي في التدين لدى الإنسان، والدخول في الحوار، ومقارعة البدعيين بالحجة والدليل.

ت. حفظ السلوك الفردي والجماعي:

الامتداد الثالث للحسبة العلمية الذي يجب التعرض له، هو اعتناؤها بالنشأة الروحية والعلمية واستحقاقاتها، وما تسببه من الأثر على الحياة الاجتماعية. ولبيان هذه المسائل، نعتمد على كتاب ألّفه العالم الجزائري عبد الكريم الفكون (توفي ١٠٧٣هـ)، الذي سمّاه "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، وكما يشير إليه العنوان فإن الفكون قصد إصلاح طائفتين من الناس وفق ما يقتضيه نظام الحسبة العلمية؛ وهما: طائفة المتشبهين بالعلماء، وأصحاب الولايات الكاذبة التي لا يزال المتصوفة المنتحلة يدَّعونها. وفي عرضه لأشكال الإصلاح أتقن صاحب الكتاب وصف وتشخيص حالة الديانة، والحالة العلمية للمجتمع المسلم في شمال إفريقية في القرن الحادي عشر الهجري. وهذا التشخيص الذي يشكل بحد ذاته الدافع السياسي الذي جرّه إلى تأليف الكتاب من خلال عباراته، ويفهم الباحث درجة تعقد الوضع الذي يحتاج –حقاً– إلى جهود العلماء المنضمّين تحت مظلة "الحسبة العلمية"، للقيام بالواجب الديني والعمراني، خدمة للدين والمجتمع المسلم. ومما جاء في ذلك الوصف ما يأتي: "فلما رأيت الزمان بأهله تعثّر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيساً، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيساً، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروايح السلب والطرد من المولى عليه فائحة، إلاّ أنهم –أعني الطائفتين– تمسكوا من دنياهم بمناصب شرعية، وحالات كانت قِدْماً للسادة الصوفية، فموّهوا على العامة بأسماء ذهبت مسمّياتها، وأوصاف تلاشى أهلها منذ زمان، لبّسوا بانتحالهم لها على أهل العصر أنهم من أهلها، فما راقبوا المولى أن يعالجهم، ولا خافوا فجأة الموت فما بعدها تصادمهم، لولا حلم من سبقت رحمتُه غضبَه، فاغْتَرُّوا وما نظروا، واستهونوا وما استبصروا. كل ذلك والمولى يمهل لهم، ويجري أسباب

المنُىَ كيف ما أحبّوا...، فزادوا به تمرداً وطغياناً، وأظهروا به أن لهم نصيباً وافراً، ولعمري لقد نالوا به حِرْمَاناً وخُسْراناً."[٩١]

كما أحسن الفكون تصميم فصول كتابه بما تقتضيه روح "الحسبة العلمية" ومقاصدها التي تقوم أساساً على الإعلام، والإصلاح الجدي، والإحسان، وليس الدخول في الصراعات عن طريق الجدل، والتجريح، والظلم، والفوضى، والسطحية، وقصور النظر، وغياب الحكمة؛ إذ اختار المسلك المباشر في مواجة الفساد الذي قصده. لكن قبل ذلك استهل كتابه بالكلام على النموذج السليم للفئات التي قصدها بالإصلاح، وهم العلماء والصوفية، وذلك في فصل عنونه بـ"في من لقيناه من العلماء، والصلحاء المقتدى بهم، ومن قبل زمنهم ممن نقلت إلينا أحوالهم، وصفاتهم تواتراً، أردنا التنبيه عليهم، وذكر ما كانوا عليه، وزمانهم، وتواريخ وفاتهم". ثم انتقل في الفصل الثاني إلى المتشبهين بالعلماء، وهم الفئة التي يبدو أن فسادها أقل تعقيداً من الفئة الثالثة التي عالجها في الفصل الثالث، وهم كما نعتهم يمثلون "المبتدعة الدجاجلة الكذابين على طريق الصوفية المرضية".

وعلى الرغم من أن كتّاب الحسبة الأوائل لم يعرضوا لهذا الفرع من الحسبة العلمية إلا ما قل في فصول الحسبة على الوعاظ كما فعل ابن بسام، وابن المحتسب، إلا أنّ التمحص في أخبار التاريخ الإسلامي، تشير إلى تقدم زمني مبكر لهذا النوع، فقد مارسه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ حين رأى رجلاً مظهراً للنُّسك متماوتاً فخفقه بالدرة، وقال: "لا تمت علينا ديننا أماتك الله"، وفي رواية: ارْفَعْ رأسَك فإن الإسلام ليس بِمَرِيض. وبعده قال سفيان الثوري: سيأتي أقوام يخشعون رياء وسمعة، وهم كالذئاب الضواري، غايتهم الدنيا، وجمع الدراهم من الحلال والحرام."[٩٢]

وفي هذا المجال اتجهت الحسبة العلمية إلى المكونات النفسية للشخصية الإنسانية بكشف الأسرار الدقيقة التي تبين الحقائق المخفية، إما إيجابية بنّاءة أو سلبية هدامة. هذا النموذج نجده على سبيل المثال في مؤلفات العلماء الذين أخذوا على عاتقهم الإبحار في دراسة النفس البشرية، وما يشكل ظروفها، وأثر ذلك على التَّدَيُّن والاستقامة في شؤون

[٩١] الفكون، عبد الكريم. **منشورات الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية**، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٧م، ص٣١-٣٢.

[٩٢] السيوطي، جلال الدين. **الأمر بالإتباع والنهي عن الابتداع**، القاهرة: مكتبة القرآن، ١٩٨٧م، ص٢٠.

الحياة. وأحسن ما كُتب في هذا المجال كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي (توفي ٥٠٥هـ) الذي اعتمد إلى حد ما الأسلوب التربوي المتجه إلى تزكية النفس وتطهيرها. والكتاب الآخر لصاحبه ابن الجوزي (توفي ٥٩٢هـ) "تلبيس إبليس"، الذي أتقن فيه تصنيف الفئات التي تشكل المجتمع من العلماء، والولاة، والسلاطين، والزهاد، والصوفية، والعوام، وجميع الناس، وهو الأمر الذي يجعله أكثر قرباً إلى أحوالها ومعرفتها، وهذا بلا شك يساعد على تقديم العلاج المناسب لمشكلة تلبيس إبليس في العبادات مع مراعات فروق كل فئة. وفي مقابل هذه الفئات تطرق إلى فئات أُخر دخيلة وقع عليها حتماً التلبيس، وهي بدورها تؤثر سلباً على الناس وتصوراتهم، وهذه تتمثل في المذاهب الفكرية والفلسفية كالسوفسطائية، والدهرية، والطبائعيين، والثنوية، والفلاسفة وأتباعهم. ففي العهد العباسي عين المهدي محتسباً مكلفاً بالزنادقة، وذكر الطبري في أحداث عام (١٦٤هـ) "أرسل عبد الجبار المحتسب لجلب الزنادقة من أرض الجزيرة فأتاه بهم، وهو بدابق فقتل جماعة منهم وصلبهم."[٩٣]

فقد أشار ابن الجوزي على سبيل المثال إلى المعضلة التبليسية التي يعاني منها بعض المسلمين؛ أتباع فلاسفة اليونان والإغريق. وهذه المعضلة في رأيه يعود سببها إلى الوقوع في صنف من التخليط هو عدم التسليم بأن "قوى البشر لا تدرك العلوم إلا جملة، والرجوع فيها إلى الشرائع. وقد حكي لهؤلاء المتأخرين في أمتنا أن أولئك الحكماء كانوا ينكرون الصانع، ويدفعون الشرائع، ويعتقدونها نواميس وحِيَلاً، فصدّقوا ما حكي لهم عنهم، فرفضوا شعار الدين، وأهملوا الصلوات، ولابسوا المحظورات، واستهانوا بحدود الشرع، وخلعوا ربقة الإسلام."[٩٤]

ث. حفظ المؤسسات ونظم التدبير الإسلامية:

تعد المؤسسات بمثابة الأجهزة الصلبة (hardware) التي يقوم عليها المجتمع بأسره؛ إذ كلما كانت أقوى في مواجهة المشكلات، وأنسب لتحقيق لوازم العمران البشري، كان

[٩٣] الطبري، محمد بن جرير. **تاريخ الطبري**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٠م، ج٨، ص١٤٨.

[٩٤] ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. **تلبيس إبليس**، دراسة وتحقيق: أحمد بن عثمان المزيد، د.م: دار الوطن للنشر، ١٤٢٢هـ، مج٢، ص٣٣٤.

رسوخ المجتمع وتمكينه أعلى وأشمل. فهذه الحقيقة كانت جزءاً من التعاليم التي أتى بها الوحي، وأنجزها الرسول ﷺ) قبل وفاته؛ فبناء المسجد، وإقامة رابطة الأخوة الإسلامية، والقضاء، والتعليم، والشوري، وبيت المال، والعلاقات الخارجية والمعاهدات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأسرة، والسوق، ... كلها مثال للمؤسسات الإسلامية الأنموذجية للمرحلة النبوية، التي يجب أن تُشيَّد وتتطور بقدر تطور العمران البشري للمجتمع المسلم. هذه الرؤية كانت واضحة تماماً في وعي السلف، لذا كان اهتمامهم بها كبيراً. فلو نظر أحد إلى إدارة الشؤون السياسية على سبيل المثال، لوجد رصيداً هائلاً من العلوم التي تعنى بهذا الجانب في جانبها النظري والتطبيقي، ومعه علوم نوعية أخرى تقوم خلفها، وهي التي نعني بها بـ"الحسبة العلمية".

ومعظم الكتب التي ألّفها العلماء في علم السياسة الشرعية، يدخل في هذا الصنف مع اختلاف الفوائد، والخدمات التي تقدمها موادها للحسبة العلمية. لكن في هذا المقام حسبنا أن نقدم مثالاً واحداً لغرض إظهار أهمية هذا التراث العلمي الذي أهمل المسلمون تفعيله لمواجهة كثيرٍ من المشكلات العويصة التي يعاني منها المجتمع المسلم في الوقت الراهن. هذا المثال هو كتاب "الشهب اللامعة في السياسة النافعة" لصاحبه أبي القاسم بن رضوان المالقي (توفي ٧٨٣هـ). ونقتصر هنا على عرض ما يحويه فصل "في التدبير، والرأي، والمشاورة، والمذاكرة وما يلحق بذلك"[٩٥] من عناصر تدخل في أدوات ووسائل النظرية للحسبة العلمية. والفصل لم يتجاوز اثنتين وعشرين صفحة، لكن مادته العلمية كانت كثيفة جداً؛ اعتمدت على مسالك عديدة في الاستدلال، والبيان، والتفسير، والإقناع تتمثل في ما يأتي: مصادر الوحي: القرآن والسنة النبوية، وتجربة الصحابة، والعلماء، والحكماء، وأسلوب النصح، والتحذير، والأمر، والتقرير، والبيان والشرح، وتحليل أحوال النفس الإنسانية، والمعرفة العلمية، وسنن العمران، وتشخيص العبرة وعرضها، والتقدير، والترتيب والتصنيف، والمقارنة، والشعر والنثر، والمصادر غير الإسلامية.

[٩٥] المالقي، أبو القاسم ابن رضوان. **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق: علي سامي النشار، المغرب–الدار البيضاء: دار الثقافة، ط١، ١٩٨٤م، ص١٤٩–١٦٣.

خاتمة:

تبدو الحسبة على خلاف الاعتقاد السائد من أنها مؤسسة تاريخية أبرزتها معطيات سياسية في الملك والاجتماع والصراع. فهي امتداد ديني عقدي واجتماعي على السواء لتعاليم الوحي؛ من قرآن وسنة. فالحسبة بوصفها مؤسسة إسلامية متميزة بنظرتها، وأحكامها، ووسائلها، ومقاصدها تشكل مناعة المجتمع ضدّ الفساد، وكل مظاهر التخلّف، وما يترتب عنهما من الضعف. لقد ضمّ التراث الإسلامي في موضوع الحسبة مواد كثيرة ومتنوعة تبرز الاتجاهات العامة التي كانت تمارس في حقب تاريخية محددة، وهي تعكس تداخل العلوم المختلفة، لتشكيل الوسيلة المناسبة للمحتسب، بالرغم من اشتهار الحسبة بارتباطها بدائرة الملك والسياسة والمعاش، إلا أن تراثها العلمي يضم دوائر أخرى لا تقل أهمية، كالتي حاولنا استخراجها في هذا البحث، ألا وهي مجال الحسبة العلمية.

لقد اجتهد وأبدع المسلمون الأوائل في دراسة الأبعاد التطبيقية للحسبة، وما يجب أن يتحلى به المحاسب من أحوال الإيمان والنفس، والقدرات، والمهارات، والمعرفة للأشخاص المؤهلين للقيام بهذه الولاية النبيلة، واستعانوا في ذلك بجملة من العلوم لإدارة مؤسسة الحسبة؛ تنتمي في عمومها إلى ثلاثة أنماط من المعرفة هي: العلوم الشرعية كالفقه، والعلوم العمرانية كالمعاش، والعلوم الطبيعية كالحساب. وهذا دليل على أن الحسبة لم تكن أبداً نشاطاً عفوياً، بل هو وعي بنائي، وحكمة إدارية، وتنظيم محكم يقوم على العلم وأدواته، للقيام بأمر ديني يتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بإحكامٍ ونجاحٍ في مختلف المجالات، وتحت أي ظرف تعيشه الأمة الإسلامية. فالحسبة كما عرضها التراث العلمي الإسلامي مؤسسة غير تقليدية، اضطلعت بمهام حفظ السلامة، وبناء الجودة في كلا القطاعين: الاقتصادي والعلمي على حد سواء، ولئن كان حظ التنظير للحسبة على المهن والصناعات أوسع وأحوط من التنظير للحسبة على مجالس العلم ومؤسساته، فإن ذلك يعود إلى سببين في رأينا، هما: عموم الأولى وتفرعها ودخولها في تفاصيل الإنسان المعاشية اليومية كافة، على عكس مجالس العلم التي تقتصر على جملة من الأنشطة المحدودة، والسبب الثاني أنها تقتصر على نخبة من المجتمع، وهي فئة المتعلمين، والمعلمين،

والمثقفين، على خلاف الأولى التي تتعلق بالعامة والعموم، مما يسهل من أمر التغرير والتدليس عليهم، بخلاف أهل العلم وطلبته.

وفي ختام هذه المحاولة العلمية للبرهنة على فرادة فن الحسبة العلمية من بين فنون الحسبة الأخرى في كتب التراث، ومحاولة الوقوف على تخصصاتها ومجالاتها، تبرز بعض التساؤلات المهمة التي ممكن أن تتطور في شكل مشاريع علمية تخدم فكرة الحسبة العلمية من قبيل: ما هي الحدود الممارساتية للحسبة العلمية على النشاط العلمي؟ وما أثرها على حرية الإبداع والفكر؟ وهل من الممكن المقاربة بين ما تم بناؤه من تصوّر وما هو واقع في حالنا المعاصر؟ وهل يمكن الإفادة من تراث الحسبة العلمية في التعامل مع غدنا وقضاياه الفكرية؟